مصرع کلیوپاٹرا

تالیف

احمد شوقی بک



مصرع كليوباترا

تأليف

المرحوم أحمد شوقي بك

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

إهـــداء

إلى صاحب السمو الملكى الأمير "فاروق"
ولىّ عهد المملكة المصرية (*)

فاروقُ يا أزكى نبات الوادى
ولمحةَ الآباء والأجداد
ويامناط العهد من «فؤاد»
الى اليد المأمولة الأيادى
أرفع ما قد وَسِع اجتهادى
وَردَ الرُّبا وزَنْبقَ الوِهاد
حوادث قديمة الميلاد
قِصْنَ عن الملوك والقُواد
وصِرنَ وحىَ شاعر وشادى
وفتنةَ اليَراع والمِداد
يَعطفَن كلَّ طيّب الفؤاد
تَهُزُّه بجيعة الأمجاد

(*) أهديت إلى جلالته قبل ارتقاء جلالته عرش المملكة المصرية .

وروعة المَقــادر العــوادى
وما خَلَوْن من شعاع هادى
يُبيِّنُ الغَىَّ من الرشــاد
ومن قصيدٍ مِلْء كل نادى
عَفِّ البيــوت نَزِهِ الأوتاد
تُسيغه مسامعُ الزُّهّــاد
وقَصص مُستَحدَث فى الضادِ
يُــؤلِّفُ التمثيــل بالإنشــاد
فى وطنٍ على الفنون غادى
مَسرَحُه كانَ بلا عمــاد
والــدُك المُعــانُ بالسَّــداد
أقام رُكنيْه فكان البــادئ
فإن تقبَّلتَ وذا اعتقادى
جَزَيتَ إخلاصَى واحتشادى
بجيــلك النــاهض بالبــلاد

شوقى

تمهيـــد

١ ــ زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليو باترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة « أكتيوم » البحرية وانتحار كليو باترا .

٢ ــ مكانها : فى الاسكندرية وأرباضها .

٣ ــ أشخاصـــها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليو باترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليو باترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينون : أمين مكتبة قصر كليو باترا .

حابى ...
ديون ... } مساعدو زينون .
ليسياس

هيـــلانة : وصيفة كليو باترا وبينها وبين حابى غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : رومانى فى معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب رومانى فى بلاط كليو باترا .

أنشـــو : مضحك الملكة .

غانمـــيز : ســاقيهـا .

حـــبرا : عرافها .

أيــاس : شــاديهــا .

أحيـــل : قائد الأسطول المصرى وربان أنطونياد سفينة كليو باترا .

بـــولا : شاعر .

أغا القصر

(ج) النكرات المسرحيـة : جنود وقـوّاد مصريون ورومانيون ، راقصات ، عزاف .

الفصـــل الأوّل

المنظـــر الأوّل

«فى مكتبة قصر كليوباترا ــ حابى وديون وايسياس جلوس الى»
«عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد»

يومُنـا فى أكْتِيُـوما　　ذِكْرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما　　هل أذقناه الدّمار!

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا　　هزّ أعطافَ الدّيار
شرفًا أسطولَ مصرا　　حُزْتَ غاياتِ الفَخار

* * *

صارتِ الإسكندريهْ　　هى فى البحر المَنـار
ولهـا تاج البريـهْ　　ولهـا عرش البحار

* * *

حابى : إسمعِ الشعبَ (دُيونُ)　　كيف يُوحون إليه
مـلأ الجـوَّ هُتـافًا　　بحيـاتى قاتليـه
أثّر البهتانُ فيـه　　وأنطلى الزور عليـه
ياله من ببَّغـاء　　عقـله فى أذنيـه

ديون :

حابى ، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى　　أن الرّميّة تحتفى بالرامى

هتفوا بمن شرب الطِّلا فى تاجهم وأصار عرشهمُ فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئًا ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمسُ الهواء
وكان البحرُ كالميْت المسجّى وكان الليلُ للميت الرداء

ديون :

نعم وهناك آنسْنا سحابا وراء الليل جللت السماء
فقلتَ انظر ديونُ ترَ الجوارى يَطأنَ الماء همسًا والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين سَوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعنَ رجوعَ قُرصانٍ أصابوا من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لملاحٍ هتافًا يُبشرُ بالقدوم ولا نِداء
ولم نرَ فوق سارية سراجا ولا من ثقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قلت ديونُ إنى أرى الأسطولَ بالويْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحًا ولا تُزجَى مواكبهُم مساء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا نَرى الأسطولَ أزْينَ ما تراءى
تبرّجت البوارجُ بعد عُطْلٍ وهَزّتْ فى ذوائبها اللواء

وردّدَ فى المدينــة أن روما عفا أسطولها ومضى هَبـاء
فضجّ الناسُ بالبُشرى وكدّوا حناجرَهم هتافاً أو دُعاء
هداك الله من شعب برىء يُصرِّفه المُضلِّل كيف شاء

[تدخل هيلانة]

ليسياس [هامسا لحابى] :

حابى : صهٍ قد ظهرتْ هيـلانهْ وأقبلت بالطلعــة الفتّانهْ
تنفحُ كالزّنبقة الغيْسانهْ

حابى : ليسياسُ، أنهاك عن المجانهْ هيلانةٌ فى القصر قهرمانهْ
لها وقارٌ ولها مكانهْ

هيلانة : سـلامٌ لك يـا حابى سـلامٌ لك هيـلانهْ

هيلانة : أُمِرْتُ أن أقول للأمينِ ستحضُرُ المَلْكةُ بعد حينِ
فبلِّغِ الأمرَ الى زينون

حابى : سيدتى سأفعـلُ أمرُكما ممتثـلُ

هيلانة : تقـرنُنى بربّـتى ! ذلك ما لا أقبـل

حابى : هيـلان، أنتِ ملْكتى وأنتِ وحدَكِ المَلَكْ

هيلانة : بـل كيلبـترا وحدَها لم يحْوِ شمسينِ الفَلَكْ
إن أنت لـم تؤمِنْ بها فلستَ لى ولستُ لك

[تخرج هيلانة و يدخل زينون من باب آخر فى هيئة تفكير واضطراب]

حابى : ذاتُ الجلالة سيدى قد آذنتْنا بالزياره

زينون : هذه حجرتُها لا عدِمَتْ طِيبَ ريّاها ولاضَوءِ حُلاها

كلَّ يوم تتجلى ساعةً هاهنا كالشمس فى عز ضحاها

تدخُلُ الدارَ فتنسى مُلكها بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها

[محدّثا نفسه فى ركن قصى من أركان المكتبة] :

أما الشبابُ فقد بَعُد ذهب الشباب فلم يَعُدْ

ويجى أمِن بعد السنين وقد مرَرْن بلا عدد

أو بعد طولِ تجاربى ومكانِ علمى فى البلد

تجْنى الحسانُ علىّ ما لم تجْنِ قبلُ على أحد؟

ديون [هامسا إلى رميليه] :

حابى ، ليسياس ، أقسِمُ أن زينونَ مغرَمُ

فضح الشيخَ حبُّه والهوى ليس يُكتَمُ

ليسياس : بمَنِ الشيخُ مولَعٌ ليتَ شعرى متيَّمُ؟

ديون : وبمن جُنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] : كلُّ خاف سيُعلَمُ

زينون [مستمرا فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أتّهم الشبابَ وأضطهدْ
لم ألقَ رأسًا فاحمًا إلّا حملتُ له الحسد
ووجدتُ لاعجَ غيرةٍ بين الجوانح يتّقد
فكأن ظلمةَ شَعره فى مُقلتىّ هى الرّمد
وكأنما سرقت ذوا ئبُهُ شبابى المفتقَد
ولو آن لى ولداً فما ت لما بكيتُ على الولد
حذَرًا وخوفا أن يكو نَ بها تعلّق أو وجَد
شكٌّ يعذّب مهجتى إن المشكّكَ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى و يطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى، بُنى

[يأتى اليه حابى]

قل ولا تُخفِ علىّ هل تُحبْ؟

حابى : أُحبُّ ! من قال ؟

زينون : سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب؟

زينون : بُنىّ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجب
مَن لم يُحبّ لم يُؤدِّ للشباب ما وجب

حابى [متهكما] :

لكن أأدّعى الهــوى وليس لى منــهُ سببْ؟

زينون : حابى ، بُنىّ لا تَــرُعْ مِنَ السـؤال بل أَجِب

لولا الهــوى لم تَكُ فى ظـل الشباب تكتئب

ما بال بِشْــرِك امّحَــى ولـونك الغضّ شُحب؟

وللدمـــوع من مآ قيــك تكادُ تنسكب؟

حابى [ساخرا] :

افقْ زينونُ واصحُ من الغوانى أبعد الشيب تخدعُك النساء؟

زينون [غاضبا] :

أتعــلم يا غلامُ علىّ عشقًا ؟

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون : ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون : وكيف ؟

حابى : تهْــذى فتفضحك الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يَدرى تكشَّفَ عن سرائره الغطاء

أبعد العطف والإشفاق يشقى ... بصحبتك الشبابُ الأبرياء؟
فكلّ فتى رأيتَ زعمت صباًّ ... يُخامرُه من الرقطاء داء؟
وما كعمّى الشيوخ إذا أحبُّوا ... وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه]:

إلهى قد فُضِحتُ وضَلَّ شيبى ... وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى]:

صدقتَ بُنىّ بى داءٌ دخيلٌ ... وليس إلى الدواء لىَ اهتداء
علىّ تلوّتِ الأفعى، فهلْ لى ... من الأفعى ونكْزتها نَجَاء؟
أرى ولَهًا وأحسبُهُ جنوناً ... كسانيهِ على الكِبَرِ القضاء

حابى: وتُعطَى حين تَلقاها ابتساماً ... وأنطنيوسُ يُعْطَى ما يشاء
صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ ... وللأقداح والقُبَل المساء
أتَرْضَى ان يكون سريرُ مصرٍ ... قوائمُهُ الدعارةُ والبِغَاء؟
أتهدِمُ أمةً لتَشيدَ فرداً ... على أنقاضها؟ بئس البِناء!
أبى، شيخى، اجترأتُ عليكَ فاصفحْ
فلم أكُ أجترى لولا الوفاء



إلهى قد فضحت وضل شيبي وضاعت حكمتي وخبا الذكاء

(صفحة ١٣)

لقد آن التكاشفُ والتواصي ... بما توحي الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا، فإنّا ... جنود الحق يجمعنا لواء
شبابَ نحن يعوِزُنا شيوخ ... بهم في المدْلهِمَّةِ يُستضاء
زينون : كفى، إنى نفضتُ يدىّ منها ... ومُزِّقَ عن بصيرتىَ الغشاء
حابى : أبى زينونُ قد بحُتُ ... من السر بمكنونى
وما غيرُك زينونُ ... على السر بمأمون

[يشير إلى ديون وليسياس] :

أخى، هذا أثينىٌّ ... وخِلِّى ذاك مَقْدونى
كِلا الخلّين للحق ... كما أدْعوه يدعونى
كِلا الخلّيْن ذو جَدٍّ ... بأرض النيل مدفون
فليْسا في هوى مصرٍ ... وفى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالى ... بالجنس وبالدين
ولم نصبر على حكم ... لرومِيَّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتاف ... ولسنا حزب أَنطُون
ولا نَخْضَعُ للبأس ... ولا نُخْدع باللين
ولم يَبقَ على الودّ ... لروما غيرُ زينون

زينون : معاذ الله ، عُـدُّونى من العصبة عُـدُّونى
كساك الله يا روما لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكلُّ داء له فى صَيْدليّتك الدواء
فَهىِّ لها ابنَ ساعته وعجّلْ يُعَجّلْ فى السماء لك الجَزاء
لعل سمومَك الزُّعْفَ المواضى من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكهْ ! لَا بَرِحَتْ مُمَلَّكهْ !
ودام مجدُ المملكهْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأعيان القصر]

الملكة : تحيّتى لأُمناء المكتبه وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السّموات فى مجدها على ربّة التاج ذات الجلالْ
تمنيتُ رأسين لا واحداً إذا مسّت الأرضَ هامُ الرجالْ
أُطَاطِئُ رأسًا لمجد النبوغ وأخْفضُ رأسًا لمجد الجمال

حابى ، ديون ، لسياس [يتلمت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشـو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغنيهِ عن رأسيـ ـنِ رأسٌ فيـه وجهان؟
فحينًا هـو مصريٌّ وحينًا هـو يونانى
وفى مجلسِ يوليوسَ وأنطونيوس رومانى
وإن لاقى أغا القصر فنـوبىٌّ وسـودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة : كاهنَ المُلْكِ سـلامٌ لا عدِمنا بركاتِك
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـسَ صغارى فى صلاتك

أنوبيس : رَبّةَ النيـل التّحيـا تُ الزّكيّاتُ لذاتِك
حرَستْ تاجكِ إيزيـ ـسُ ومدّتْ فى حياتك

الملكة : هوَ ذا ابنى قيصرونُ يتـلـقّى نفحاتِك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصَلّى على ابنِ يوليوسَ قيصرْ؟
أبوه عالٍ ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْك ، سادتى ، هل سمعتمْ رنّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى ؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتي

الملكة : ليت شعري

أللخيرِ تجمّعوا أم لشرِّ؟

شرميون :

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشّطِّ يموجون في حُبورٍ وبِشْرِ
سَرّهم ما لقيتِ في أكتيومٍ من ظهورٍ على العدوّ ونصرِ
لا يقولون أو يُعيدون إلّا نبأً بات في المدينة يسري

الملكة :

يا لإفْك الرجالِ! ماذا أذاعوا كذبٌ ما رَوَوْا صُراحٌ لَعمري
أيَّ نصر لقيتُ حتى أقاموا أَلْسُنَ الناس في مديحي وشكري؟
ظَفَرٌ في فم الأمانيّ حلوٌ ليت منه لنا قُلامةَ ظُفْرِ
وغدًا يعلمُ الحقيقةَ قومي ليس شيءٌ على الشعوب بِسرِّ

شرميون :

ربّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعي أنا وحدي وذلك المكرُ مكري
كثرتْ أمسِ في الإياب الأقاويـ لُ وظَنَّ الظنونَ من ليس يدري
فأذعتُ الذي أذعتُ عن النصـ ـرِ وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصرِ
خفتُ في خاطري عليك الجماهيـ ـرَ وأشفقتُ من عِدًى لك كُثْرِ
فاغفري جُرْأتي، فيارُبَّ ذنبٍ يَتعب العذرُ فيه مهّدْتُ عذري

الملكة :

شرميونُ، اهدئي فما أنت إلا   مَلَكٌ صيغ من حنانٍ وبِرّ

أنتِ لي خادمٌ ولكن كأنا   في المُلِمّاتِ أهلُ قُربي وصِهر

إنما الخادمُ الوفيُّ من الأهـ   ـل وأدنى في حال عسرٍ ويسر

اسمعي الآن كيف كان بلائي   وانظري كيف في الشدائد صبري

أيها السادةُ اسمعوا خبَرَ الحر   ب وأمرَ القتال فيها وأمري

واقتحامي العُبابَ والبحرُ يطغى   والجَواري به على الدَّمِ تجري

بين أنطونيو وأكتافَ يومٌ   عبقريٌّ يسيرُ في كل عصر

أخذتْ فيه كلُّ ذاتِ شِراع   أُهْبَةَ الحرب واستعدّتْ لِشَرّ

لا ترى في المجال غيرَ سَبُوحٍ   مُقبلٍ مدبرٍ مِكَرٍّ مِفَرّ

وترى الفُلكَ في مُطاردة الفُلـ   ـكِ كنَسرٍ أراد شرًّا بنسر

وتخالُ الدُّخانَ في جَنَبات الـ   ـجوِّ جُنحًا من ظلمة الليل يسري

ودَوِيَّ الرياح في كل لُجٍّ   هزَجَ الرَّعدِ أو صياحَ الهِزَبْر

وترى الماءَ، منه عودُ سرير   لغريقٍ، ومنهُ أحناءُ قبر

يغسِلُ الجُرحَ شرَّ من غسَل الجر   حَ ويأسو من الحياة ويُبري

كنت في مركبي وبين جنودي   أَزِنُ الحربَ والأمورَ بفكري

قلت روما تصدّعت فترا شَطـ   ـرًا من القوم في عداوة شطر

بَطَلاها تقاسَمَا الفُلكَ والجيـ   شَ وشبّا الوغى ببحرٍ وبرّ
وإذا فرّقَ الرُّعاةَ اختلافٌ   علّموا هاربَ الذئاب التجرّي
فتأملتُ حالتيّ مليّا   وتدبرت أمرَ صحوي وسكري
وتبيّنتُ أنّ روما إذا زا   لت عن البحر لم يَسُد فيه غيري
كنت في عاصفٍ، سلاتُ شراعي   منه فانسلّت البوارجُ إثْري
خلَصت من رحى القتال ومما   يلحق السُّفْن من دمار وأسْر
فنسيتُ الهوى ونُصرةَ أنطـ   ـيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر
علمَ الله قد خذلتُ حبيبي   وأبا صبيتي وعوني وذُخري
والذي ضيّع العروشَ وضحّى   في سبيلي بألف قُطْرٍ وقطر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه   بنتَ مصر وكنتُ ملكةَ مصر

[ملتفتة الى زينون]:

زينونُ، فصّلتُ الخبرْ   عن القتال والسفرْ
وقلتُ عن إيابي   وخُطة انسحابي
ما ليس يعلمُ البلدْ   ولا درى به أحدْ
فهل لديك الآنا   ما يجلبُ السُّلوانا
من الأماني المُسْليهْ   والصُّحُفِ المُلْهيهْ

زينون : عنــدى يا مولاتى روائــعُ الآيات
تِسْعون ألف سِـفْرِ قــد كُتِبتْ بالتِّـبر
من كل رَقٍّ عجيبِ فى العلم أو فى الأدب
قيصرُ أنطونيو وهب لنـا مناجمَ الذهبْ
وكلَّ غال مدَّخرْ من الجواهر الأُخَرْ
أسلابه من حربه وطَعنِـه وضربه
هديةٌ من قيصر لبَــلدة الإسكندر

أنشو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغنىُّ بدُرّ الفــواقـع حين يُرَصِّعُ تِبرِ العُقـار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فـا أنا سـوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [مغيظا] :
ولكنها حكمـةُ السائمات وفلسـفةٌ غـيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تَعـدّى الشعورَ بحُبّ البقـاء وخوف الدمار

أنشو : رويدك مولاىَ بعضَ السِّباب فليس السِّبابُ سبيلَ الكبار

هَبِ الليلَ طال فقطّعته بِدَرْسٍ وأصبحتَ تُفنِى النهار
وأقبلت بالكتب تطوى الطِّوالَ وتَنشُرُ فى إثرِهِنَّ القِصار
وزِدْتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفَقتَ ومات الحمارُ أبينك فرقٌ و بين الحمار؟

زينون [غاضبا] :

ما ذا تقول السيده؟

الملكة [ضاحكة] : واحدةٌ بواحده

أبِى أنو بيسُ ، أرجو

أنو بيس : بل تأمُرِينَ مُطاعَهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهه إليه] :

هذا مُقامُ صلاتى وهيكلى للضراعهْ
ولى خطايا كثيرةٌ لا تَبرَحُ البالَ ساعه
فادخلْ وصلِّ لأجلى فمنك تُرجَى الشَّفاعهْ

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليسياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرتِ رَفرَفَ معبدٍ من كلِّ ناحيةٍ عليه سِتارُ

اختَصَّ آلهــةُ الجــلال بِسرِّه   وتفرَّدَ الكُهَّان والأحْبــار
ما خَطْبُهم حابى ، وماذا بيَّتوا
ليسياس : ما هــذه الألغاز والأسرار؟
حابى :
أرأيتَ وقعةَ اكتيوم وما جرى   فيهــا وكيف تصرّفَ المقدار!
ليسياس ، إنك قد سمعت حديثها   كالسحر فى الآذان حين يُدار
تبدو الخيانةُ فيــه وهى أمانةٌ   ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار
وعلمت كيف نجت وكيف انقض عن   أنطونيُو أسطولُهــا الغــدّار
ليسياس :
واليوم حابى ، أيْن أنطونيو وما   فعلت بفَلّ جيوشه الأقــدار؟
قل لى : أحىٌّ فى البلاد مشرَّدٌ   هــو أم له قـــبرٌ بمصر يُزار؟
حابى :
ليسياس ، تسألنى تجاهل عارف
ليسياس : بل جاهــلٍ لم تأته الأخبــار
حابى :
لم تأت حــتى جاء فى آثارها   للحبِّ أجنحةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذته تحت شراعها   ونجــا به فُــلْك لهــا محصــار
تجرى الرياحُ بمــا تشاءُ قلوعُه   ويســـيرُ فى طاعاته التيــار

وُيقالُ غَضبانٌ عليها عاتبٌ ويُقالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقيْنِ سحابة وعلى سلامِ الصاحبيْنِ غُبار
آلَى وأقسم لايُرى فى قصرها حتى يَقُومَ مجدُه المنْهار
إن البلاء أجلُّ من ألّا يُرَى

ديون : عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار؟

حابى :
أنطونيو منا بأقرب مُكنةٍ يدعو من الرومان من يختار
ويُعِدُّ أُهبتَه ليوم حاسم فى البر يُغسلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومدَارَها تلك التلالُ وهذه الأسوار
فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف إما الدَّمارُ به وإما الغار

[يسمع صوت أنو بيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ مالكةَ العالمينْ
شعبُك لاقَى العذاب من عَبث الظالمينْ

*
* *

يا من خفضنا الجباه لعزِّها ساجدينْ
صُغنا إليك الصلاهْ من أدمع النادمينْ

[ستار]

المنظـــر الثـــانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين اكتافيوس وأنطنيوس على أســوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليــه هيلانة»

هيلانة : أتدْخــلُ حابى مَقاصيرَها؟ بلغتَ من الجُرأةِ المنتهى

ســتعلمُ أمرُكَ ذاتُ الجلالـ ـة

حابى : بــل أمرتْ أن ترانى هنــا

هيلانة : عجبــت لهــا ولتــدبــيرها كذلك قــد أمــرتنى أنا

إذن هى تجمعنــا يا جُحُــودُ وتجــزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى

حابى : هــلانةُ خَلِّيك من ذكرِها حديثُ الأفاعى طويلُ المدَىٰ

هيلانة : رُوَيدَكَ حابى لقد أحسنَتْ فمالى أراكَ أسأْتَ الجزا؟

حابى : هــلانةُ ، يا طيبهــا خَــلْوَةً وإن قَــلَّ فى ظلِّها المُلتقَى

تَعــالَىْ هلانةُ نُعطِ الغــرامَ عِنانَ الحديث ونَشْكُ الجوَى

أبــلى يــدىَّ يدَيْكِ اللّتَــيْنِ نعيــمى بينهــما والشــقا

هَلُمِّ هــلانةُ

هيلانة : حابى أَراكَ بِكُنْهِ الأمورِ قليــلَ الهُدَى

من القصر لا تَلتمِسْ خَلْوَةً وإن هو من كلِّ حسٍّ خلا

سماء القصور لها أُذُنان وأَرضُ القصور بِعينٍ تَرى

حابى : هلانةُ لا تقطعى نَشْوَتى بقُربِك أَو حُلُمى باللِّقا

أمهما تَخَيَّلْتُ صَفوَ الحياة خلقتِ على جانبيْهِ القَذَى؟

هيلانة : حنانَكَ حابىَّ لا تتهِمْ ولا تَرمِنى بعُقوق الهوى

ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صَديقُ الصّوابِ عدوُّ الخطا

فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العَنا

ولكنْ حقوقُ كلوباطْرة

حابى : وأى حُقوقٍ لها تَدّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا : حُقوقُ الولايةِ ياذا الغلامِ حُقوقُ الرِّعايةِ يا ذا الفتى

وَصبرى عليكَ لأجل الفتاة

حابى [مأخوذا] : إلهى لقد سمِعت ما جرى

الملكة : وسدِّى المسامعَ حُبًّا بها وأَنت تُعينُ علىَّ العدا

وتُرسِلُ فى العَرشِ هُجْرَ الكلام وتُغْشِى الحفيظةَ لى والقِلى

ولكنْ لننسَ الذى قد مضى فمثلُكَ تاب ومثلى عَفا

دع الذَّوْد عن مِصرَ لى إننى … أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطِعِ الفِتْيَةَ العابثين … أُسُودَ الكلامِ نَعامَ الوَغى

[إلى أنوبيس] [يدخل أنوبيس]

أبى : قد أتيت

أنوبيس : سلامٌ عليكَ … شُعاعَ المدائنِ نورَ القرى
الملكة : أبى قد تَلاقَى هنا العاشقان … وكان بتدبيرىَ الملتقى
فبارِكْ فتاتى وبارِكْ فتاكَ … وكَفكِفْ هواه إذا ما غلا
أنوبيس : حياتك حابى كنسيَّةٌ … يشاكلُ أوّلَها المنتهى
مقيَّدة باليقين القنوعِ … وما أَمَرَ القلبُ أو ما نهى
الملكة : كزهرِ المقاصير لم ينتفعْ … بطولِ الأديم وعُرضِ الثرى
أنوبيس : وتحسبُ فى الكتب علم الحياة … وما منهُ فى الكتب إلا الشَّذا
حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصهِ … يَقيسُ الطريقَ ويُحصى الخُطا
أرى راكبَ الشكِ ملءَ المجال … طويلَ العنانِ بعيدَ المدَى
ولو شكَّكتْ فى السراج الفَراشْ … لكان سلاماً عليها السَّنا
أنوبيس : ولكن تَمُرُّ على ما تراه … تُجاوزُه نحو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ

[مشيرا إلى هيلانة]

كهولاته طليق الإرادة حُرُّ الحِجَى
تمشّى على جَنَبات الحياة كما يتمشى شُعاع الضُّحى
يخوض الوحولَ ويغشى الحُلَى ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخترقُ العَرَصاتِ الفِساحَ وينفُذ من ضَيّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أنوف الأسودِ ويلعب بين عيون الظِّبا

الملكة: ولكنهُ طاهرٌ حيث طافَ نقيُّ الذيول عفيف الخُطا
أبى قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدورُ الرحى
وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهر المدينة رهنُ الوغى
هنالك يُقضى مصيرُ البلاد فإما البقاءُ وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ وما من رسولٍ ولا من نبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى: سيدتى جئتُك بالأخبار لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضَّوارى تحت لواء البطل المغْوَار
قيصرُ أنطونيو على آثارى

الملكة: يا فرحًا ما أَعْظمَ البِشاره! حلَّتْ على أُكتافيو الخَساره
«وأَكتيومُ» قد أَخذنا ثاره خُذْ يا رسولُ هذه البُشاره

[تمنحه بدرّة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون : سـيدتى يا طـربًا ! سـيدتى يا فـرحًا !
دارتْ عـلى أكتافيو وجيش أكتافيوُ الرَّحى

هيلانة : مَلْكَتى هـل تسمعين

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة [منصتة] : صـوت بـوق وهتـاف

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها] :

هـو واللهِ نشـيدى والمُغنُّون جنـودى
والمخاريقُ التى تخـفقُ من بعْـدٍ بنُـودى
ولـديْهـا فارسٌ مُلـتئم شاكى الحـديد
يَتراءَى فى عِنان الـجو كالبرْج المَشِـيد
هـو أنطنيـوسُ ذُخْـرى وطَـريـفى وتَليـدى

[إلى شرميون وهيلانة] :

أيهـا البِنتـان هـذى ليـلةُ العيـدِ السـعيدِ
صَلِّيـا مثـلَ صَلاتى واسجُـدا مثـلَ سُجُـودى

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة] :

هو ذا أنطـونيو من جانب الميناء أقبَـلْ
هيـكلٌ يحمِـلُهُ من صافناتِ الخيـل هيـكل

الــــرِّداءُ الأرْجُوانىُّ على عِطفيْـه مُسْبل
مَبسمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يَتهـلَّل
هــو ذا يدنــو

شرميون : أتى والـــلهِ

هيــلانة : مـــولاتى تـــرجّـــل

الملكة [تبتدر الباب] :

أَيهـا البنتان هـــذى ليــلةُ العيـدِ الســعيدِ

أنو بيس [هامسا لحابى] :

حابى ، أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم ما بى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى؟ وتأذنين مَلْكتى لحابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنو بيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيَـكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة مادا يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانى !

الملكة : مَلِكى !

أنطونيو : عندى لكِ اليومَ يا دُنياىَ أخبارُ

الملكة : عجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمنٍ

الملكة : كرائمُ المالِ؟

أنطونيو : ما للمال مقدارُ

[يمدّ إليها جبينه فى ضراعة] :

رُدّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ ... فقُبلةٌ منك تعلوها هى الغارُ

[تقبله]

كليوباترا :

اليومَ تعلم روما أن ضَرّتَها ... تُقلّدُ الغارَ مَن تهوَى وتختارُ

واليومَ تعلمُ روما أنّ فارسَها ... جيشٌ بمفردِهِ فى الرَّوْعِ جرّارُ

أنطونيو سيدى ، هل نحن فى حُلُمٍ؟ ... أسالمٌ أنت؟ لا أسرٌ ولا عارُ؟

أنطونيو :

أسرٌ؟ وهمتِ كليوباترا ، أتظفرُ بى ... أيدى الكُماةِ وفى كفىّ أظفارُ

لو قلتِ قتلٌ لكان القولُ أَشْبهَ بى كأسُ المنـايا على الأبطال دوّار
الحربُ تعلمُ والأيامُ تَشهدُ لى أنى شـديدٌ على الأقران جبّـار
لو كنتِ شاهدتنى والحربُ جارفةٌ والصفُّ تحتىَ بعد الصفِّ ينهار
قد جُنَّ تحتِى جوادى فهو عاصفةٌ وجُنّ نَصْـلِى بكفى فهو إعصار
رأيتِ حمـلة صـدقٍ غيرَ كاذبة لا السَّيْلُ يحمِلُها يوماً ولا النـار
لما صَدمتُ جناحيْهم وقلبهمُ عن الخيام ومن أَوكارهم طاروا
وما وجدتُ لأكتافيـو وقادتهِ ريحًـا ، ولم أتبيّنْ أيةً ساروا
ومالتِ الشمسُ أوكادتْ فراجعَنى شـوقٌ إليكِ قديمُ الداء سوّار
حتى رجعتُ ولو أنى طَردتُهـم لبات أكتافُ عندى وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغـدٍ ! هـذى مجـازفةٌ غـدٌ غيـوبٌ وأسرارٌ وأقـدار

[مخاطبة أوروس] :

أُوروسُ ، أنت بفنّ الـ قتـال أعـلمُ منّى
الحـربُ فنُّـك أُورو سُ والسياسةُ فنى
إن كان « مرْكُ » إلها فأنت فى الحرب جِنى
فكُنْ بحقّـك عَـونى وقـلْ لقيصـرَ عنى



ردّى على هامتى الغار الذى سلبت فقبلة منك تعلوها هى الغار

(صفحة ٣١)

إنّ المنى لم تُقصّر — بل قَصّرَ المتمنى
فلو صَبرتم قليلا — وسرتمُ فى تأنى
أَرحتُمونى وروما — من الخصام المُعَنّى

أوروس : سيدتى لم تقصدى — لما عذلتِ سيدى
عَجّلتِ فى الحُكم على — ما لم ترىْ وتَشهدى
لقد حَملنا حملة — كمثلها لم يُعهَد
استنفذتْ بأسَ القنا — وقُوَّةَ المُهنّد
فكان لا بد لنا — نُرجى القتالَ للغد

أنطونيو : كليوباترا دعينا من — تَجَنّيك كليوباترا
أتبكين على الصبر — وقوم حُرموا الصبرا ؟
وبى من صبرك الواهى — جِراحُ الأمس لم تَبرا
لقد مَنّيتُ أسطولى — لدى أسطولكِ النصرا
حَليف كنت أرجو أن — سأشتدُّ به أَزْرا
فَعبّا تحت أعلامِ — لِك حتى زَحما البحرا
وقد كانا الجناحيْن — وقد كنتُ أنا النَّسرا
وأجرى الفُلْكَ أكتافيو — فأجريتُ كما أجرى
صففْناها وأرسلنا — بها تقتحِمُ الجمرا

كِلانا مارَسَ الحربَ وعانى الـكَرَّ والفَـرّا
فلمـا آذنَتْنـا الحـر بُ بالمعركة الكبرى
تَسـلَّلْتِ بأسـطول ك من غمرتها الحرّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفًا وقال الناسُ بل غدرا
ولـو كان لهـم قلب كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا : أنطونيـوسُ مَلـكى أنطونيوسُ سيّدى
ليس العُبـوسُ سُـنَّةً لوجهك الطَّلْق النّدى
ولستَ من يغضبُ فى ليـل الشّراب والدَّد
ولستَ للكأس عـلى شاربها بالمُفسِـد
قلبُـك كنزُ الحب والـ ـرحمـةِ والتـودُّد
وكم حَقَـدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقِـد
ألستَ بالأمسِ وأمـ ـسِ لفتـة لم تبعُـد
وَهبتَ لى جـريرتى والصفحُ نصفُ السُّؤدد
فاطوِ معى حوادثَ الـ أمس ولا تُجَـدِّد
وامضِ معى فى لَذّةِ الـ ـيوم ودَعْ هَـمَّ الغـد

أنطونيو : كلوباترا بحبِّـك من التأنيب خَلِّينا
لقـد سُقتُ وقُوّادى إليك النصر فاجزينـا

مُرى بالكاسِ والطاسِ … وبالندمان يَسقينا
وبالقصف وبالعزفِ … وحُذّاقِ المُغنّينا
وما طُيّب ألواناً … وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلْويّا … كما كنتِ تقولينا
وأوحيه إلى شادي … ك يُلقِيه فيُشجينا
غداً نستأنفُ الحربَ … ونَطويها ميادينا
انشو : ونَغشاها مَخاميرَ … ونلقاها مجانينا
كليوباترا : مُرْ بما شئتَ قيصرُ … وأَشِرْ كيف تأمرُ
لكَ قصرى وما حوى الـ … ـقصرُ كلٌّ مُسخّر
ليس شىءٌ وإن غلا … عن حبيبٍ يُؤخّر
لَتكونَنّ ليلةً … آخرَ الدهرِ تُذكَر
لا نُبالى إذا صَفتْ … بعدها ما يُكدّر
تَحلُمُ الحُلْمَ لستَ تَد … رى بماذا يُفسّر
[لوصفائها ووصيفاتها] :
البِدارَ البِدارَ يا وُصفائى … ووصيفاتىَ البِدارَ البدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النا … هى على القصرِ فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمةً فاصنعوها … واسقوها كما اشتهى واختارا

أَطلِعوا هـذه الشموعَ شُموسًا تَـذَرُ الليـلَ بالعَشِيِّ نهـارا
وأعِدّوا الخوانَ قد حُمِّل الأل ـوانَ شتّى وجُلِّل الأزهـارا
واجمعوا بالمُدام شَمْل النَّـدامَى وأديروا الكئوسَ والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبِسـاطًا يتبـارى خلاعــةً ووقارا
مصرُ إنْ أولمتْ سَمتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسـيروا عـلى ولائم روما سَرَفًا فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرّتْ على الحضارة عارا
ولقـــد تجعـلُ الثمِّـارَ نَداما ها وأسْـد العَرينـةِ السُّمّارا

قائد رومانى [لزميله غاضبا] :

أتسمعُ ما تقـول عَدوُّ روما ؟ قـد اجترأتْ على روما البَغِيُّ
أتحـت لـوائهـا وبجانبيهـا يخوضُ الحربَ مِن روما كَمِيٌّ ؟

الآخـــر :

غـدًا تَلقى وإن غـدًا قريبُ عقـابًا فى البـلاد له دَوِيّ

الأول [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أَميرىَ أَنطونيو أَفى الحق أَننا نَبيتُ سُـكارَى والعدو مُبَيِّتُ ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إنه ليـلٌ له ما وراءَه غرامُك حىٌّ فيه والمجدُ ميِّت

« ســتار »

الفصـــل الثـانى

«فى حجـــرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيـــلانة»
«وشرميون ، وأنطنيوس ، وأوروس ، وبضعة من القؤاد الرومان ، وأولمبوس»
«طبيب الملكة ، وأنشو مضحكها ، وعانميز ساقيها ، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو : قيـامًا نَشرب الخمـرَا عـلى حُبِّ كلـوباترا
كليوباترا : على حُبـك أنطـونيو على الجيش على مصرا
قائد رومانى : على روما
كليوباترا : دَعـــوا روما ولا تُجروا لهـا ذِكْرا
فمـا أنطـونيو منهـا وإن كان ابنَها البِكْرا
ولـكنْ تحت أعلامى يَقـودُ الـبرَّ والبحرا
القـائد : أحـقٌّ ماركُ أنطونيو س مِن روميَّةٍ تَـبرا ؟
[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]
أنطونيو : أجلْ أَتبـعُ مـولاتى ولا أعصِى لهـا أمرا
كليوباترا : على حُبـكَ أنطـونيو
أنطونيو : ثلاثًا أربعًـا عَشْرًا
أنشـو : وإن شئتَ فعشرينَ الى ما فوقهـا سُكْرا
وإن شئت من الدنيا وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همسا] :

دَعوا أنطونيو إنى | أرى السُّكْرَ به أزرَى
لقد كان الفتى الفَطِنَ | فصار الحَدَثَ الغِرّا

قائد آخر [همسا] :

سنلبثُ ساعةً نحتالُ حتى | إذا سُلّتْ عقولهمُ انسللْنا
فما المُتدلّه السِّكّيرُ أهلا | لتنصُرَه السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :

أَياسُ المُغنّى وجَوْقَةُ العُزّافِ
وراقصاتُ القصرِ
[يدخلون]

كليوباترا : أهلًا بوفدِ الآلهه | أهلِ الفنونِ النابِهه

الحاجب : الشيخُ زَيْنون
رُبّانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو : ماذا عن الأُسطول منـ | ـكَ يا أَخيلُ نَعلمُ ؟
هل خمدتْ فتنتُه | أو لم تزلْ تَضطرِمُ ؟

أخيل : مَولاىَ إن البحرَ يُخْـ | ـفى سِرّه ويكتُمُ

وما نــواه فى غــد مثــلُ غــد مُستبِهِم
فــلا أقــولُ مُقــدِمٌ ولا أقــولُ مُحجِــم
ولا أقــولُ ينــبري للحــرب أو يستسلم

كليوباترا: أخيلُ، دَعْنا من غدٍ إن غــدًا توهّــم
أخيلُ، ماالعيشُ سوى ساعةِ صــفوٍ تُغتنم
فــلا تكنْ كداخــل على النَدامَى يلطــم
أتيتَهــم مُنــادمًا لم تَأتِهــم ليَنــدموا
اليــومَ شُربٌ

زيــون: وغــدًا حــربٌ

عانمير: كلامٌ مُحكَم !

الحاجب: بــولا الشــاعرْ حَــبْرا الســاحرْ

كليوباترا [ضاحكة]: حَبْرا، أعنــدكَ سِحــرٌ يَشُلّ طاغوتَ رُوما ؟
ويَجعلُ الناسَ فيهــا حجــارةً ورُســوما؟

[القوّاد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو: سيدتى لاتجرحى فُؤادى ولاتَنالى بالأذى أجنادى
وقلّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانيٌّ ألم تقـل إنك لى جُندىٌّ؟
أنطونيو : بلى، وددت أنى مِصرىٌّ وأنى تابِعُـك الـوفىٌّ
* ما فى سوى رضاك لى مُضىُّ *
أنشـو : تـلك والله قضـيهْ أصـبح الراعى رَعيّـهْ
حَـكم الحبُّ عـلى قيـصـرَ والحُـب بليّـهْ
صـار كالشعب وساوَى همَـجَ الإسكندريهْ!
أنطونيو : حبرا، تكلّـمْ ألا عجيبـهْ؟ من سِحر مَنْفٍ أو سِحر طيبهْ
حـبرا : إلهَ الحـرب سامحنى فإنى غُلِبتُ على أبالستى الغِضابِ
هُمُ لا يجلِسون على غِنـاء ولا يتحدّثون على شراب!
كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا وقيصرُ لا يُرَدُّ بلا جواب
وانت الكاهنُ العرَّافُ فانظر أغيرُ السحر شيءٌ فى الجراب
حـبرا : إذا ما شئتِ مولاتى فإنى أُطالع فى الكُفوف وفى الكتاب
كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حـبرا وانظُـرِ الكفّيْن واقـرا
أنطونيو : تعـالَ حـبرا وقلّـبْ يـدىَّ يُمـنَى ليُسـرى
لعـل أسـرارَ كـفى كواشِـفٌ لك سِـرا
[يتقدّم حبرا و يمعن فى كف أنطونيوس]



ألا ترى لى بقاء؟ ألا ترى لى عمرا؟

(صفحة ٤٣)

ألا تَـرى لى بقـاء ؟ ألا تَـرى لىَ عُمْـرا؟
حبرا : يا عَجَبَ الفـال ! مولا ى أعجبُ النـاس أمرا
حيـاتُـه بيـديْـه والنـاسُ يَحيَـوْن قَسْرا
إن شئتَ عشتَ نهـارا أو شئتَ عُمِّـرْتَ دهرا

[قائد رومانى إلى زملائه همسا] :

لو كنتُ منه قريبًـا لقلتُ فى أُذْنِ حـبرا
حيـاتُـه فى يَـديْـه أم فى يَـدىْ كليـوباترا !

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفِّى وبيِّن ما الذى تُخْـفى

[يتقدّم حبرا إليها و يمسك يدها بعناية وشغف]

حبرا : يا لكِ كَفًّا كنقِيِّ العـاجِ ناعمـةٍ تَخَمَّـلِ الدِّيبـاجِ
لامِسُها من الجحيم ناجِى !

[ضحك]

تفدى الأَكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ تَرِفُّ لِينـا
كما أَظَلَّ الشَّفقُ النِّسْرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمِعتِ حبرا مَلْكَتِى كيف ابتكرْ كُفّ أن يَصنعَ سِحـرا فشَعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْك معانيهِ
وما سَرّك أنطونيو سُروري كلُّه فيه
فما تأمرُ فى حبرا بأىِّ البرِ أجزيه؟
حبرا [لأنطونيو] :
جائزتى يا سيّدى تقبيل هذه اليدِ !
أنطونيو [ضاحكا] :
قَبِّلْ ولا تَرَدَّدِ !
[يقبل يديها بين إقدام وإحجام]
حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تقـ ـوَى على هذا الضياء
هذه كفُّ إلهٍ جاء فى زِىِّ النساء
كليوباترا : خَلِّنى مِن زُخْرُف المد ح ومِن زورِ الثناء
ما وراءَ اليد يا عـ ـرّافُ من غَيْب القضاء؟
أحضيضٌ يومىَ الآ خِرُ ـ قل لى ـ أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلَى باهتمام العظماء
حبرا : مَلْكتى يومُكِ فى الأيّام منشور اللواء
نابهُ الصبح كيوم الـ شمش عُلْوِىُّ المَساء

خَطَـر العِـز عليـه ومشى فيـه الإباء
ثم يَتـلوه بقـاء لـم يُطـاولْه بقـاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قد أجدَى فماذا قلتَ يا فابر ؟

زينون : إلهـتى وملاكى كُفِّى المُهـرِّجَ عـنى
قـد نال منى ولـولا ناديكِ ما نال مـنى

أنشـو : سيدتى عبدُكِ أنشو قـد صدقْ
الفـارُ فى مكتَبةِ القصـر نطـق
يقـول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !
هَمِّىَ فى الجـلد وهَمُّـه الـورق
يَسـطو على آثار كلِّ من سـبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثـالَه زادوا على زينونَ فى الجُرْأَه
يا وَيْحَ للشيخ على فضـله أصـبح فى مجلسهم هُزْأَه

أنشـو : هَبوه فى الدرس بحـرًا هبـوه فى العـلم أُمَّـه
لا يَحـلُقُ العـلمُ نفسـًا ولا يُنبِّـه هِمَّـه

كم عالمٍ فى يد الجـا   هلين مُلقَى الأَزِمَّـه

كليوباترا : أَقِلَّ المَـزجَ يا أنشو   وأرســـلْه بمقـدار
فلولا الجهلُ ما رُحتَ   تَقيسُ اللّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظى و يا أرض صونى
أظهـرتْ عَطفَها على زينـون !

كليوباترا : يـا غانمـــيز   هاتِ النبيـذْ
هاتِ اسـقنى   واسقِ الحبيب
واسـقِ المَـلا

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنـانْ   أُمُّ الزمانْ
خبَّـــأهـا   فى قَـــبْـــوِهِ
ساقى مِنـا
لـونُ الفَـرَحْ   حِنّـا القَـدَحْ
سِـرُّ السرورْ   صَـفوُ الحيـاهْ
قُـوتُ المُنى

كليوباترا : قيصرُ، ذى سُلافةُ الفيومِ
تُنْمَى إلى عَقـائل الكُروم

مَخبوءة من عهـد مصرائيم
قـد عُمِّرت كعُمُر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القوّاد الرومان [يدمدمون ويتهامسون] :

قائـد : قـولوا يا رومانيّونا تحيا روما

آخـر : تحيـا

ثالث : تحيـا

أنشو [ضاحكا] :

تحيـــا الخمـر يحيـا السُّكْرُ

القوّاد : تحيــا روما

جماعة من المصريين : تحيـا مصـرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسُّ بلـغ السُّـكْرُ مَـداهْ
غَنِّنى شـعرَ مَلاكى غنـنى شـعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيـو وأنطونيـو أنا ما لرُوحينا عن الحُب غنَى

غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

***

رَجَّعتْ عن شَجونا الرِّيحُ الحَنونْ وبعينَينا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونِ فى حَواشى الليل بَرقًا وسَنَى

***

خَبِّرى يا كأسُ واشهدْ يا وتَر وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ يا سحرْ
هل جَنَيْنا من رُبا الأُنس السَّمرْ ورشفنا من دَواليها المُنَى

***

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ هو من سَرْحتها سِرُّ النَّواهْ
وعلى صحرائها مَرَّتْ يداه فجرتْ ماءَ وظلا وجَنَى

***

نحن شعرٌ وأغانىُّ غدَا بهوانا راكبُ البيد حدَا
وبنا المَلاحُ فى اليمّ شدا وبَكَى الطيرُ وغَنَّى مَوْهِنا

***

مَن يكنْ فى الحب ضحى بالكَرَى أو بمسفوح من الدمع جرَى
نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى ولَقِينا الموْتَ فيه هيّنا

***

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المُؤثر وذهبنا مَثَلًا فى الأعصُر

هوأعطى الحبَّ تاجيْ قيصر لم لا أعطى الهوى تاجيْ منا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ
آخر : يحيا الشعرُ
ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامسا] :

هلاّ نظرتَ الى الأميرة؟ إنها سكرى تعثّرُ فى خليع عِذارها
آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على آثارها وانجرَّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وأولمبوس] :

وانظرْ الى أوروسَ فى تردّدِهْ يأبى الهُتافَ معنا لمَولدِهْ

أولمبوس [ساخرا] :

أوروسُ مِلءُ يومه مِلءُ غده فتى نَضِجُ الحروبُ من مُهنَّدهْ
ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده قد راعنى فناؤه فى سيده
بنفسه وقومه ومَولده يَغلو غُلوَّ الكلب فى توددِه

يُقيِّدُ الكلب وراء مَرصَده فيحـرُس الدارَ على مُقيِّـده

أوروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة فحَـذارِ ثم حَذارِ من تَكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة لأميرة الوادى السعيد ودارها
انتزعتُ من أقصى لهَاتِك مُضْغةً كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أوروس !

أوروس :

أولمبوسُ صَهْ بَرِحَ الخَفـا ورأيتَ نفسَك فى مَفاضِح عارها
ماذا خبأْتَ من السُّموم لملَكة غفَلتْ عن الأفعى ولُؤم جِوارها ؟
إلّا تكنْ علِمتْ فإنك عندنا جاسوسُ اكتافيو على أسرارها
ما زِلتَ منذ وفدتَ تُطلعُه على أخبـار قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يفوتُنا لحَظُ العيون ولا خَفِيُّ حِوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس إليه] :

أقْصِرْ أخى إن الجماعةَ عربدت فإذا لَجَّتَ لَفَتَّ من أنظارها
إسلَمْ بنفسك فى الظلام ولا تثِرْ ربَّما أخافُ عليك غِبَّ مَثارها



تلك الدعابة يا طبيب ثقيلة فحذار ثم حذار من تكرارها

(صفحة ٥٠)

إنى لأخشى الكأس أن تجرى دَمًا فتُصيبَ شيئًا من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لمسه وهو ينسل الى الخارج] :

أوروُس ! أنطونيو ! حسابُكما غدًا روما الأبيَّةُ لم تَنَمْ عن ثارها

[يخـرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيـلانـ ـةُ فى ليلتنـا حِصّـهْ ؟

ألا تَجمـعُ بين الكا س والنغْمة والرقصه ؟

فهذى فُرصةُ الأُنس وقد لا تَرجع الفُرصه

هيـلانة : الراقصـاتُ يَقمْنا الراقصـاتُ يَثِبْنـا

ولا يَدعْنَ افتنانا ولا يُقصِّـرْن فنّـا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [ناديا] :

مرحى مرحى يحيـا الفنُّ

صـوت : يحيـا الـرقصُ

آخـــر : يحيـا الحسـنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أوفوقَ ذاك وآذنَنـا بالمُضىِّ الدُّجـى

ودونَ الخيام سُرَى ساعة ... وعند الصباح تدورُ الرحى
فهل تأذنين لنا يا ملاكُ ... فلا بد من سِنةٍ من كرى
ولستُ أقولُ ملاكى الوداع ... ولكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانَك قيصرُ لا تذهبنّ ... ولا تبرَح القصرَ أهلِكْ أسَى

أنطونيو :

ذَريني أُعبِّئْ للقتال كتائبى ... فلى فى غدٍ شأنان فى البر والبحر
ذريني اهيّئْ للأحاديث فى غدٍ ... فإن غدًا يومٌ سيبقى على الدهر
ذريني أَزِدْ تاجيْك غارَ وقائعى ... وأقرِنْ بشعبانى جلالهما تَسرى
ولستُ أخافُ الدارعِينَ وإنما ... أخافُ بِفُجَاءاتِ الخيانة والغدر
وليس كَمِينَ الحرب ما أنا هائبٌ ... ولكن كَمِينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[الأحيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مكيدةٍ ... تُدبِّرُ لى خلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمضِ إلى الهيجاء أنـ ... ـطونيو كما يَمضى الأسدْ
إن الأسود فى اللِّبَدْ ... دونك فى هذا الزَّرَدْ

إمض إلى المجـد ولا يُقعِدْك شُغلٌ فى البلد
المجدُ لا يَسألُ عن صاحبـةٍ ولا وَلَـد
أنت لـروما فى غــدٍ وقيْصرونُ بعـد غـد
والشرقُ سلطانى الذى إكليلُه لىَ انعَقَـد
ياليثُ سِرْ يانَسرُ طِرْ عُدْ ظافرًا أو لا تَعُـد

« ســتار »

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ، والقسم »
« الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس »
« وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقائق وقوارير وهنا وهناك »
« صرر وصناديق يشف بعضها عما فيه من أفاع وحيات — باب »
« خلفى يؤدّى الى المعبد . ونافذة جانبية تطل على الفضاء »

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ ... وَلوعٌ بأفاعيه
ومشغوفَ بثعبانٍ ... من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيّاتٌ ... من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم ... كما ذقتُ فَنَوْا فيه
ألا يارُبَّ خدّاعٍ ... من الناس تُلاقيه
يَعيبُ السُّمَّ فى الأفعى ... وكلُّ السم فى فيه !

[يخرج من الباب الخلفى]

✣
✣ ✣

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس : أوروس إنى جَهِدتُ مَشيا ... ومَسّنى الضُّر والكَلالُ

فهل بنا نسترح قليلا من قبل أن يدهم الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروس، ماذا دهانى؟ حتى نسيت مكانى
أتيت ما هدّ مجدى وحطّ رفعة شانى
جللت نفسى بعار يبقى بقاء الزمان
لما حملت جوادى على الفرار ازدرانى
وضجّ منى سيفى وصح منى سنانى
ووددت الأرض تحتى لو طهرت من عيانى
أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى
الشرق يدرى نزالى والغرب يدرى طعانى
كان الملوك عبيدى فصرت عبد الحسان
ولست أول حر إستعبدته الغوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أر كالحرب استراح قتيلها وأفضى الى القيد الأسير المقيد
ولكن شقى الحرب والمصطلى بها
إذا انفضت الحرب الطريد المشرد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ
عزيزٌ ولم يَنزِلْ على القيْد سيّد

أوروس :

وقارَك قيصرُ لا تجزعنّ   وخلِّ المقاديرَ تجري المَدَى
تَلَقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجَنان   كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا
فما أنتَ أولُ نجمٍ أضاء   ولا أنت آخرُ نجمٍ خبا
وقد تنزلُ الشمسُ بعد الصعود   وتَسقمُ بعد اعتدال الضُّحَى
ويا رُبَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ   على هامةٍ قد علاها البِلى
أمالك أنطونيو أُسْوَةَ   بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟
رأيتك والحربُ تَبْلو الكُماةَ   فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغى
وقد كان سيفُك غُولَ السيوف   وكانت قَناتُك غولَ القنا
وكنتَ إذا الموتُ أفضى إليك   تحدّيتَه فانثنى القَهْقَرى
وكان جُنودُك شرَّ الجنود   عليك وخيرَهمُ للعِدى
فخانت أساطيلُ أمّلتَها   وجيشٌ عقدْتَ عليه الرجا
وخُلِّفتَ في عسكرٍ كالنِّعاج   كثيرِ الثُّغاءِ قليلِ الغَنا
فمن يائسٍ مات قبل القتال   ومن خائنٍ فرّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكنْ فى الوغى بالجبان ولا خُنتُ أوروسُ عهدَ الهوى ؟
وتشــهدُ أنىَ أنطونيــوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى ؟
فإن عِشتُ عِشتُ نَقِىّ الجبين وإن مِتُّ مِتُّ كريم الثنــا

[يرى أنطونيو شبحا فيسأل أوروس مبهوتا]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس : مولاىَ

أنطونيو : تأمَّلْ مَن ترى ؟

أوروس : هذا أولِمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس : ها هو سارٍ نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس : تحيــةً قيصــرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لا غير بل قُل الشَّريد المُقتفَى
لا تخدعونى قادرًا وعاجزًا كفى غرورًا بالوِلايات كفى

أولمبوس : مــولاى

أنطونيو : لستُ اليومَ مَولَى أحدٍ أكتافيو السيِّدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلوباترا أولمبوسُ نبا؟
صرِّحْ أبِنْ، قُلْ عدرتْ، فل جددتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى
قد صنعتْ بى عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بىَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى! أعْفِنى

أنطونيو : تكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس :

مولاى مهلًا فى الظنون واتئدْ إن من الظن اتهاماً وأذى
أنت على مالكَ من مُروءةٍ رميْتَ بالغدر أحب منَ وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلبترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

ياللسماءِ! انتحرتْ! أين؟ أَيِنْ ولمْ؟ وكيف كانَ ذاك؟ ومتى ؟

أولمبوس :

مَررْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أَجدْ له نَظْما ولا حُسنا يُرى

بَدا لعينيَّ خلاءً موحِشا غيرَ عويلٍ هاهنا وهاهنا

أنطونيو: إنتحرتْ! يا للخبرْ! ويا لِقسوة القدر!

إن الأمورَ انتقلتْ من خَطرٍ إلى خَطر

ما غَدرتْ وإنما أنا الذى بها غَدر

وانَجْلتا من قولهم انتحرتْ وما انتحر!

إذهب أُولمبوسُ ودعْ نى والهمومَ والكدر

ما بجِراحات القلو ب للأطبّاء بَصَر

[يذهب أولمبوس]

[للروما] :

روما حنانَك واغفرى لفَتاكِ أوّاه منك وآهِ ما أقساكِ!

روما سلامٌ من طَريدٍ شارد فى الأرض وَطّنَ نفسَه لهَلاكِ

اليومَ يَلْقى الموتَ لم يهْتِفْ به ناعٍ ولا صَحّتْ عليه بواكى

إنَّ الذى أعطاكِ سُلطانَ الثرى لم تنعِمى لرُفاته بثَراكِ

إن الذى بالأمس زنت جَبينَه بالغارِ عَقّكِ جُهدَه وعصاكِ

يا رُبَّ تاجٍ فى جبينك زاهرٍ عَطّلتُ منه مَفارِقَ الأملاكِ

الأُمّهاتُ قلوبهُنّ رقيقةٌ ما بالُ قلبِك لم يَلِنْ لفتاكِ!

أعرضتِ غضبى فى الحياة فرحمةً   لا تحرمينى فى الممات رضاك
إن كان موتى كلَّ ما تبغينه   فهناك! هأنذا أموتُ، هناك!
يا أمُّ، عذرُك فى اتهام بنوّتى   بادٍ وعذرى فى العقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنة من سحره   ما حلَّ فى قلبى هوًى لسواك
صفحًا كلوباترا فربّتَ زلّةٍ   قد كنت تغتفرين حين أراك
لما لقيتُك فى الجمال وعزّه   قهرتْ قُوى الظافرات قُواك
فنسيتُ فى ناديك ذكرَ وقائعى   وسلوتُ أيامى بيوم لقاك
سجدتْ لأعلامى الصوارمُ والقنا   وأبى مهنّدُ لحظك الفتّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادرًا   ما لى ضعفتُ فقادنى جفناك؟
أخرجتِ أمرى واختيارى من يدى   وتركتِنى نفسًا بغير ملاك
خلتُ السلامةَ فى نَواكِ فذقتُها   فإذا الكوارثُ كلهنّ نَواك
عاديتُ قومى فى هواك وأضرمتْ   روما علىَّ الحربَ من جرّاك
وشرَدتُ فى شرق البلاد وجدّ فى   طلبى عِداى بغربها وعِداك
أغدو على سيف العدوّ وناره   وأروحُ بين مكامنٍ وشِباك
وتلمّستْ نفسى السيوفُ ورامنى   فى البر والبحر الكمىُّ الشاكى
كانت حياتى للرجال أليّةً   واليومَ هُنتُ فأقسموا بهلاكى

ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذممتُ عهدكِ واتهمتُ وفاكِ
حتى إذا حُمَّ القضاءُ وراعني عُطْلُ المقاصر من بهاء حُلاكِ
ضَحَّيتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ وبذلتُ أيامى وقلتُ فِداكِ

* * *

أماناً إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ بهذا الحُطام المُستباح المُبعثَرِ ؟
لقد ذَلَّ من بعد امتناعٍ كأنه بقيةُ نَصْلٍ أو رُفاتُ غَضَنفَرِ
صَدعتَ أكاليلى وحطّمت صارمى وجرّدتنى من أرجوانى المُظَفَّرِ
ولم تألُنى هدْماً وكنتَ بَنَيْتَنى بناءَ الصَّناع القادر المتُجبِّرِ
ملأتَ سبيلى بالهوى وصروفه ومن يَمشِ فى أَرض الهوى يتعثّرِ
تنكّرتَ حتى اخترتَ لى معْولَ الهوى فليتَك لم تَغضبْ ولم تَتَخيرِ
أُروسُ غلامى، إنّ فى النفس حاجةً وعندىَ أقصى طاعة العبد فأْمُرِ

أوروس :

أنطونيو :

أُوروسُ أرى الدنيا بعينىَ أظلمتْ وكانت قديماً كالصباح المنوّرِ
وضاقت بىَ الأرضُ الفضاءُ فكلُّها سبيلُ طريدٍ ضائعِ الدّمِ مُهدَرِ
غوَيتُ وأَوْفَى بى على الحُفرة الهوى نخفتُ، ومن يركبْ شفا الجُرْف يُذْعَرِ
قُشَعريرةُ الخوف اعترتْنى ولم تكُنْ إذا ما اقشعرّتْ تحتىَ الأرضُ تعترى

مُلِئتُ من الأحداث رُعباً فضَمَّني إليك وقَرَّبْ من إزارك مِئْزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدينِ كمنقذ لمثلىَ من غَرْقَى الحيـاة مُسَخَّر
دعانى، ولو أنى على النفس مُشْفِقٌ مَدَدْتُ إليـه الكَفَّ لم أتأخر
أُروسُ، أرى الماضى يُطيفُ خَيالُه وتَعرِضُ لى أحلامُهُ فى التذَكر
ذكرتُ بروما أرْبُعى وملاعبى وأين ضِفافُ النيل من شَطرتَيبَرَ؟
وأيامَ يَدْعونى الهوى فأُجيبُـه وينفخُ فى البُوق المنادى فأنبرى
فَتَنْتُ الغـوانى بُرْهَـةً وفَتَنَّنى ولكننى عن سُؤدَدٍ لم أقصر
فهمَّةُ قلبى فى شـراب وصَـبْوةٍ وهمَّـةُ نفسى فى عَـلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقَفنا على كلّ غَمْـرةٍ وكلّ مجـالٍ ثائرِ النَّقْع أكدَر
وفى مِهْرجان الفاتحين وعُرسِهم وتحت لِواء أو على عُودِ منـبر
فمالتْ بنا الدنيا فصِرْنا بموقِفٍ شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعِر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا إلى فَلَكٍ نَحْسِ الجهاتِ مُسَمَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى وصـبرى على العيْش الذليل المكدَّر!

أروس :

أجلْ قيْصرُ اعتضْنا من العزِّ ذِلَّةً ومن حِلْيةِ الأعلام عُطْلَ التَّنَكُّر
فهُنَّا كأنقاض الحصون على الثرى وضـعنا عليـه كالقنا المُتكسِّر

نَهِيمُ كأبنـاء السبيل وطالمـا أخَفْنَا سبيلَ العاهِـلِ المُتَكَبِّ
ومامَنزِلُ الأبطال إلا رَحَى الوَغَى إذا هى دارتْ أو رِواقُ المُعسْكَ

أنطونيو : فماذا ترى أوروس ؟

أروس : رأيُك أوَّلُ وعندك تُرَجَى نَظْرة الصدق فانظ
لقد عِشْتُ ظِلًّا لا أرى غيرَ ماتَرَى ولا خيرَ فى الرأى التَّبِيع المُسَيَّ

أنطونيو :
أروس ، أنا الأعمى وأنت لى العصا فخُـذْ بزِمام العـاجز المُتَحَـيِّ

أروس :
أرى ما يَراه العاجزون إذا جرى على النفس مَحتوم القضاء المُقَدَّ

أنطونيو :
وماذا يقولُ العاجِزون إذا ابتُلُوا ؟

أروس : يقولون حُكْمُ اللهِ يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :
أروسُ ، يقومُ العاثرون وقلّمـا يُقـالُ عِثـارُ الكَوْكَبِ المُتَغَوِّرِ
أروسُ ، ألم تفهمْ ؟ هو الذلُّ فاشفِنِى بِضَرْبَةِ سَيْفٍ أو بِطَعنةِ خَنجَرِ

فإنك حر إن فعلت وفائز بسيفي وأثوابي ودرعي ومغفري

أوروس :

معاذ خلال البر مولاي ! أعفني فليس يدي تقوى ولا السيف يجتري

وأنت الذي لو بيع بالروح وده ومالي سوى روحي تقدمت أشتري

لآلهة الرومان أشكوك قيصري ظلمت فلم تنصف ولائي وتقدر

أتجعل في الميزان حبي وطاعتي وشتى عروض من ثياب وجوهر ؟

لقد جادلي بالسيف والدرع قيصر

[يطعن نفسه بخنجره] :

وجدت بأيام الحياة لقيصر

أنطونيو :

أوروس، عفوا قد ذهبت ضحية وجنى عليك تردى الممقوت

فعلمت مني كيف يجبن قيصر وعلمت منك العبد كيف يموت

[يطعن أنطونيو نفسه فيخر على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجي أفاعيه]

أنوبيس :

هلم لكن بنات التلال وجن الخرائب من صاجحر

تبدل من حولكن المكان وأين القفار وأين الحجر



فعلمت منى كيف يجبن قيصر   وعلمت منك العبد كيف يموت

(صفحة ٦٥)

يدُ العلم وهي حديديةٌ ... حوَتْكنّ من جنبات الحُفَر
وجاءت بكنّ إلى حُجرتي ... أسارَى القوارير رَهنَ الضَّرَر
أرابنيَ الناس في أمركنّ ... وصرتُ حديثَهمُ والسَّمَر
وقيل أنو بيسُ حاوٍ تسيلُ ... إليه الأفاعي إذا ما صَفَر
وما فتنتي بجُلودٍ لكُنّ ... مُرَقَّشَةٍ كإهاب النِمر
ولا بهيا كلَ مثل العِصِيّ ... من اللحم لا من فروع الشجر
ولا بِرءوس كَدقِّ الحصا ... ولا بعيونٍ كوَقْدِ الشَّرَر
ولكن أزاولُ علم السموم ... وعلمُ السموم جليلُ الخطر
لقد كان لي في مُعاناته ... تجاريبُ أنفقتُ فيها العُمُر
إلى أن نجحتُ، نعم قد نجحتُ ... وعاقبة الصابرين الظَّفَر
فكم قد شفيتُ بطبي اللديـ ... ـغَ وأيقظتُ من نَزْعِه المُحتَضَر
فقيل إلهٌ أعاد الحياةَ ... إلى الميْت أو خُذْنَ جِنٌّ سَحَر
صَنعتُ من السم ترياقَه ... وقد يختفي النفعُ تحت الضرر
وأنتُنّ والناسُ قد تلتقون ... ففيكُنّ شرٌّ وفي الناس شر

[تدخل حابى خادمة]

أنوبيس [مستمرًا] :

وتقتلن عُمْىَ عيون السلاح وَيقتلُ قاتِلُهم عن بصر
لِسانُ ابنِ آدمَ أو نابُكُنّ كلا السائلين لعابُ القدر

حابى : سلامٌ أبتِ

أنوبيس : حابى ؟ سلامٌ لكَ يا حابى

حابى : أمشغولٌ أبى اليومَ بذات القَرْن والنابِ
وأنطونيوس مهزومٌ وأكتافيو على الباب

أنوبيس [باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى، تقهقر ناحيهْ تلك الحبيشةُ داهيهْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القواريرُ وذى الحِقاقُ غَوْثٌ الى مُستنجِدٍ يُساقُ

* لكلِ سمٍّ عندها تِرياق *

أبتى، من للرعيّهْ من لأوطانى الشقيهْ ؟
خلِّ حيَّاتِك فى الأسـ ـفاط واشعُرْ بالرزيّه
بعد حين تملأ الوا دى الأفاعى البشريّه
أبتى نحن من اليو م عبيدُ القيصريه

أَدنِ أُذْنيْـك على قَـدْ ... سهما من أُذُنيّـهْ
واسمع البوقَ تجِدْ مِن ... أحرُف الـرقِّ دَوِيّـه

أنوبيس : حابى ، تقبّلْ هذه القِنّينهْ ... وأقبِضْ عليها بيدٍ ضنينهْ
فإنها ذخـيرةٌ ثمينـهْ !

حابى [لنفسه] :
يا لَلسـماءِ لأبى ! ... تُـراه يَسْـتهزئُ بى ؟
ويحَ له ، عساه جُـنَّ ... أو لعـله نـبى
أوحتْ له السماءُ علـ ... ـم غَيْبِهـا المحجَّب
يَعـلمُ من يُـلدَغُ من ... رَقطاءَ أو مِن عقرب
لأحمِلَنّ حُقَّـه ... مثـلَ تَميمةِ الصّـبى
يا لكَ شـيخًا طيّبًا ... يأتى بـكل طيب !

[مخاطبا أنوبيس الكاهن] :
دِيـعَ الحِمَى أبى فكيـ ... ـف للحِمَى لم تغضَبِ ؟
دعِ الأفاعى واشتغِلْ ... بالأفعُـوان الأجنب
الوطنُ المَـلدوغ أوْ ... لَى اليـومَ بالمُطبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فِتيان الحِمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أَدَرتُمُ وجوهَكم ساعةَ دارتِ الرحى
تركتم أنطونيو سَ وحدَه يَلْقَى العِدا
من أجلكم سلّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو الـ تففتمُ على اللِّوا ؟
أبعد أَن حلّ على النـ يل وواديه القضا
ولم يجدْ من شيبِهِ ولا شبابِهِ فِدا
أَتيتَ تدعونى كما تدعو العجائز السما
الرأْىُ ليس نافعًا إِذا أَوانُهُ مضى

[يدخل جند من حرس الملكة]

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباتره فى حاشيتها]

كليوباتره : تحيةٌ يا أبتِ

أنوبيس : سيدتى فى حُجرتى

مُرِى بما شـئتِ يَكنْ وإن تحـدّى قُـدْرتى

كليو باترا :

أَبى ، أعلمتَ أن الجيشَ ولّى وأن بوارجى أبتِ المُضيّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى بـه أفضى إليّـا

كليو باترا :

وهل نبّاك عن أنطونيوس وكيف جرتْ هزيمتُه عليّـا

وما أدرى أأردوْه قتيـلا صباحَ اليوم أوأخذوه حيّا؟

أبى ذهبَ الحليفُ فكُنْ حليفى فقد أصبحت لا أجِدُ الوليّا

أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعِى لَباةُ النيـل ليس تخافُ شيّا

كليو باترا :

أبى لا العزلَ خفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبِيّا

أيوطَأ بالمَناسِم تاجُ مصـرٍ وثَمّتَ شـعرةٌ فى مَفْرقيّا؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأتِ المقاديرُ أو فلْتـذَرْ تعـالىْ كلوبترا ألقى النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبى ، نَحِّها ، أَخْفِها ؟ أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرّ

فماذا تريدُ بإحرازهن وهل يقْتنِي عاقلٌ ما يضر ؟

أنوبيس :

أُتيتُ بهنّ لدرس السُّموم ولم أَخْلُ فى علمها من نظر

أداوى بها أو بترياقها مُحِبَّ الحياة أو المنتحِر

كليوباترا [كأنما تحدّث نفسها] :

محبِ الحياة أو المنتحِر!

كفى أيها الشيخُ! بل هات زِدْ فما بِيَ خوفٌ ولا بِي خَوَرْ

وإن تكُ بى خشيةٌ فى النساء فلى جُرْأةُ المَلِكات الكُبر

تكلّمْ فليست سمومُ الأراقم فى الخبثِ دون سُموم البشر

فيارُبَّ صفوٍ سَقَيْتُ الرجالَ فلما تَرَوَّوْا سقَوْنى الكدر

أنوبيس :

قِصارٌ وهُنّ سهامُ المَنون وليس يَعيب السهامَ القِصَر

تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذى لَمستْ مقتَلٌ ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر

إذا جَرَحَتْ لم تَقُمْ عن دمٍ كذلك يجرحُ سهمُ القدر

ومائتُهـا لا يُحِسُّ المنـونَ ... كَمَن مات فى النوم لا يُحتَضر

كليو باترا [مردّدة قوله فى صوت حافت] :

ومائتُها لا يُحِسُّ المنـون ... كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبى هل يُصانُ الجمال؟

أنو بيس : نعـم لا يَحـولُ ولا يَنـدثر

كليو باترا :

وهل يَطفأُ اللون ؟

أنو بيس : لا بل يُضىءُ ... كما رَقَّ بعد القِطاف الزَّهَر

كليو باترا :

وهل يُبطِلُ الموتُ سِحرَ الجُفون ... ويُبلِى الفُتورَ ويُفنِى الحَوَرْ

أنو بيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى ... إذا الجَفـنُ ناء به فانكسر

كليو باترا :

أبى ، والشفاهُ؟

أنو بيس :

لـواق الذُّبـول ... كما احتُضِر الأُقْحُوانُ النَّضِر

وما الموت أقسى عليها فمَـا ... ولا قُبْلَةً من عوادى الكِبر

كليوباترا :

وما عَضّةُ النـاب ؟

أنوبيس :

وَخـــزٌ أخـفُّ وأهْونُ من وَخَزات الإبر

كليوباترا :

وما شَـبَحُ الموت ؟

أنوبيس :

ماذا أقــولُ ؟

كليوباترا : تُمَثِّلُهُ لى كأنْ قد حَضَر

أنوبيس :

زعمتِ ابنتى الموتَ شخصًا يُحَسّ وعَظَّمتِ من خَطْبه ما صَغُر
وما هو إلّا انطفاءُ الحياةِ وَعصْفُ الردى بسراج العُمُر
وليس له صُــورةٌ فى العيون على قُبْـح صُورته فى الفِكَر
إذا جاء كان بَغيضَ الوجوه وإن جِىءَ كان حبيبَ الصُّوَر

كليوباترا :

إذن هــذه الرُّقْطُ فى ذمـتى فصُنْها وأحسِنْ عليها السهر

وأقسمْ لتأتِ إليّ بهن ولو أن دونى الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يمينًا بإيزيس أَحمِلُهن إليك ولو فى سِلال الخُضَر
إذا بات فى خطر تاجُ مِصـ ـر سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أتجعلُ لى يا أبى آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التين أبعثُ حابى به وبالرُّقط بين غُضون الثمر

* * *

ابنتى ذلك محرا بى ادخليه للصلاهْ
واسكُبي الدمعَ عسى أن يَقبَلَ الدمعَ الإله
هو ذو المُلْكِ الذى يبـ ـقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ
الجندى الثانى : روما العُظمى أبدا تنصَرْ
الجندى الثالث : ما ذاك؟ مافوق الطريق؟ ماأرى ؟
هيّا رفيقىّ معى لننظرا

الأوّل : هناك مقتولان ضَرَّجا الثرى

الثانى : نعم أرى ثَمَّ دما وخَنجرا

وهيكلين من حياةٍ أقفرا

الثالث : جُبَتَّارُ يا مُصرِّفَ الحروبِ بارِكْ لنا فى هذه الجيوب !

وابعثْ لنا بالذهب المحبوبِ

الأوّل : ياعَجَبَ الأقدار !أنطونيوسُ؟

الثانى : أنطونيو! أَجلْ وذا أوروس !

وأحسَب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيّدِه

لهفى على أنطونيو فى مرقدهْ

[يئن أنطونيو ثم يحرك رأسه ويتبين الجنود]

أنطونيو :

ويحى أخىَّ أنا جريحُ؟ ما ذا يُريدُ القضاءُ ما ذا

جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى مِتُّ قبل هذا

جندى :

لا بل جنودُك لكن خانوك حُبّاً لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترمى بهم مَطالعَ الشمـ ـس أو تَـؤُمُّ النجوما

أنطونيو :

يا جنودى وصحـابى ليس ذا وقتَ العتاب
اتركونى وعذابى

[يغمى عليه]

جندى :

لَهفى عليه عاده الإغماء وأوشكتْ تَنزِفُه الدماء
وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخـر :

هَلُمّا احملاه هَلُمّا احملا وجيئا بمولا كما الهيكلا
وأمضى فأُبلغُ أكتافيوا الـ حديثَ أعرِّفُه المنزِلا

[فى حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا :

أبى دخلتُ ونفسى حَيْرَى الزمام حزينهْ
وقد تركتُ المُصلّى ومِلءُ قلبى سكينه
إن الصَّلاةَ على شـ ـدّ ة الزمان مُعينـه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا :

ما تسمعون أصيخوا شَـرٌّ وهـذا بَريـدُهْ

كان الضجيجُ بعيدًا والآن يدنو بعيدُه

حابى :

أسمعتم ! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجُنودٌ فى الطريقْ

هاهمُ قد دخلوا الدار به

أنو بيس : دارُنا الشاطئُ لا يأبَى الغريق

حابى :

ها همُ قد حضروا

أنو بيس : يا مرحبًا أعدُوًّا كان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

ويحَ عينى ماذا ترى؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأكُفِّ خضيبا

أيها الجنـدُ ما بأيديكمُ اليـو م ؟

جندى : جريحٌ على الطـريق أصيبا

كليوباترا :

أفتدرون مَن حَمَلْـتم؟

جندى : حَمَلنـا هيكلا عزَّ فى الرجال ضريبا

قد عرفناه خَيرَ من هزَّ رمحـًا ونضا صارما ولاقى الحُـروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيــو ! حبيبي ... أدركونى بطبيب
ماترون الأرض تروى ... من دم الليث الصبيب
أبتى ، أين قــوى طـ ... ـبـّـك والسحر العجيب
هو فى إغمـاءة الجـُر ... ح فنبِّهــه بطـيب
هــو ذا يفتــح عينيـ ... ـه ويصــغى لنحيــبى

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه توالى وهــذا ... جسمه لايزال غضًّا رطيبا
هــو ذا قد تخالجت شفتاه ... وتهيّـا لسـانه ليثــوبا
أيهـا الملكة ارفقى بجريح ... باتتحت الرداء جرحا صبيبا
لاتنـاديه بالدموع مرارا ... ربمـا ضرّجرحه أن يجيبا

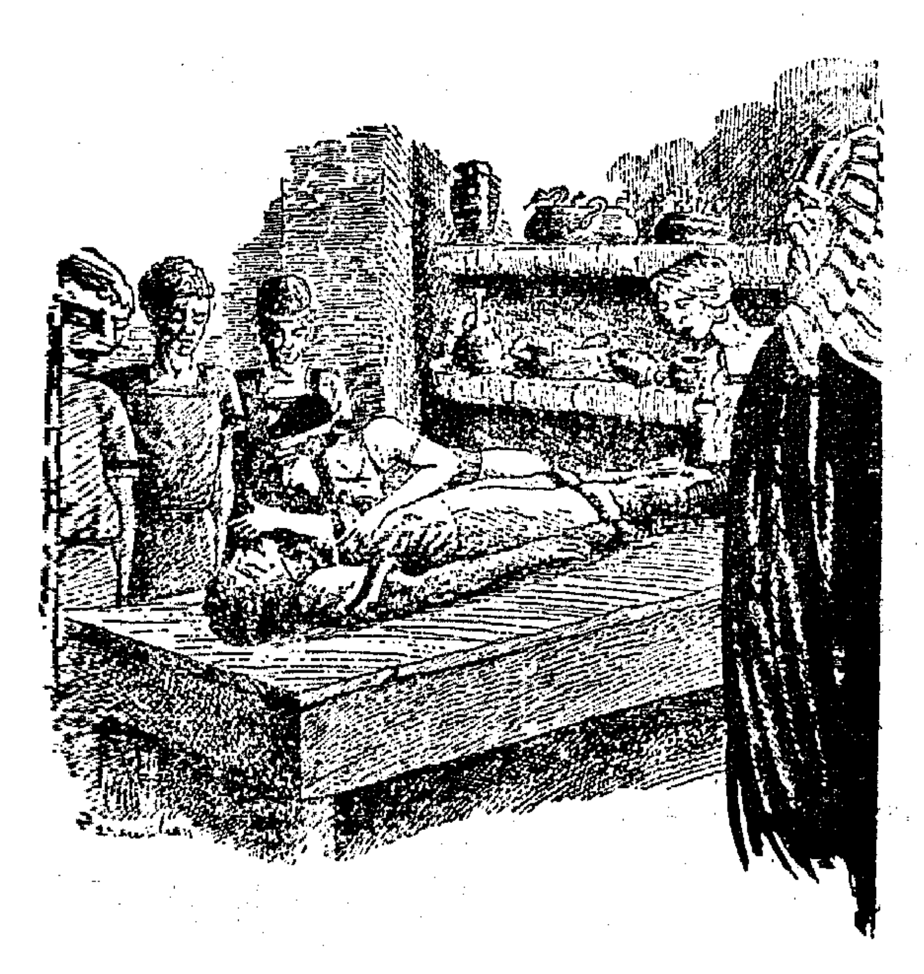
أنطونيو :

كيلبترا ! عجبٌ ! أنتِ هنـا ! ... لم تموتى...هم إذن قد كذبون

كليوباترا :

سيدى روحى حياتى قيصرى ... أنت حىٌّ؟

أنطونيو : ... بعد حين لا أكون



آه أنطونيو حبيبي . أدركونى بطبيب

(صفحة ٧٩)

كليوباترا :

من نَعانى كَذبا ! من قالها لك !

أنطونيو :

أُولمبوسُ النـذلُ الخَـؤون
مَـرَّ فاسـتوقفتُـه أَسألُه قال ماتتْ فتجرَّعتُ المَنونْ

* * *

كليوباترا زوّديني قُبـلةً من ثناياكِ العِذابِ الشَّبِماتْ
وأضيئي بسَـناها مُقـلةً يُسْدِلُ الموتُ عليها الظُّلُمات
سيقولُ النـاسُ عنى فى غد من أولِى الرحمةِ أو أَهل الشَّمات:
بَطـلٌ لم تَظفَرِ الحـربُ به فى الهوى تحت لِواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قـد تَداعى محْـوَرُ الأر ض وميزانُ الشـعوبِ
مال كالشمس جمـالاً وجـلالا فى الغـروب
أيهـا المجـروحُ لـو تـد رى جُـروحى ونُـدوبى
أَيهـا الذاهبُ قـد آ ن عن الدنيـا ذُهـوبى
أَيهـا الخـالِصُ وُدًّا ليس وُدّى بالمَشـوب
أَيهـا الصـادقُ وعـدًا ليس وعدى بالكَذوب

عن قريب يَنطوى القبـ ـرُ علينا عن قريب
كَلِّلوه بالرياحيـ ـن وبالغار الرطيب
واهتِفوا فى أُذنيه بأنا شيد الحروب

* * *

واحبيباه، جاءه الموت فاستسـ ـلم لا يستطيع إلّا ذهوبا
كان ماخِفتُ أن يكون وحلّتْ نَكبة لم تفاجئ المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا معىَ السيدَ الجَسورَ الوَهوبا
شَبِّكوا ساعديْه من فوق صدر كان فى الرَّوْع بالمنايا رحيبا
واعرِضوا سيفَه على راحتيْه وارِكزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا الشأنكم جُندَ روما ودَعونى وسيفَ روما السّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ إن دعا دارَه ونادى النّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لى قد طلبتُ عند طباع الـ ـناس ما عَزَّ عندهم مطلوبا
خَلَق الناسُ للقَوىِّ المزايا وتجنَّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا لب فانظُرْ هل عَظَّموا مغلوبا
شيّعوا الشاةَ جِيفةً بمُداهم واتّقَوْا وهْو فى الرِّمام الذّيبا

أنوبيس :

الوقارَ الوقارَ يا لَبْـأَة النيـ ـل ولا تجعـلى الزّئيرَ النحيبا
وقِفى للخُطوب فى عِزّة المُلْـ ـك وفى كِبْرِه تُذِلّى الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى :

قيصـر أكتافيوسُ آتى يعـودُ أنطونيوسَ قيصـرْ

كليوباترا :

قيصر ! فـرّ الأسـير منـه مَن فى حمى الموت ليس يُؤسر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

سـلامٌ مَلْكةَ الـوادى سـلامٌ كاهنَ المُـلْكِ
يقـولُ النـاسُ أنطـونيو هنـا لـم يَبتعِـدْ عنـك

كليوباترا :

نعـم لـم نَفـترقْ بعـد وإنْ أمعـن فى تركى
وهـذا الجسـد الفـانى جَـلاءُ الرَّيب والشـك

أكتافيوس :

إذن قد قُضِيَ الأمرُ وصار الليثُ للهُلْك
كلوباترةُ لا تخشَيْ فإن آخذه منك!

كليوباترا :

أبي تهزأُ أم بالميْتِ أم بالموقف الضَّنك
إن استطعتَ على مالك من بَطش ومن فَتك
وما حولك من خيل وما تحتك من فُلْك
نفُذه من يد الموت ومن عاجزةٍ تبكي!

[يدنو جندي من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تهتِكنْ على سيد الهالكين القِناعْ
تُريد لتكشِفَ عنه الغطاءَ عسى تحته حيلةٌ أو خداع
عَبِثْتَ به وهو تحت الطِّبالِ س مُلْقِيَ السلاح قليلَ الدفاع
ولم تحتشِمْ بُقَعًا من دم عليهن تحسُدُ مصرَ البِقاع
رُويدَك، ما الموتُ مُستبعَدٌ ولا هو مستغرَبٌ من شجاع
وإن التماوتَ فعلُ الثعالب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَــكِ سـيدتى إنــه فتى طاهرُ القلب حــرُّ الطباع
أراد ليحتــاطَ لى جُهــدَه ويُخلصَ فى خدمتى مااستطاع
تنحَّ أخا الجند ما أنت والميــتَ! لا يَقرَبُ الشمسَ إلا الشُعاع!
أتأذنُ سـيدتى أن أطيــفَ بخِدنِ الصِّدام رفيق الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنا ظِلَّه ومن كان ظِلِّىَ تحت الشِّراع
وكنا نَشـيد لروما الفَخارَ ونَجْنى لها الغارَ من كل قاع
ونأتى القِــلاعَ فنحتلها وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَرْكِزُ فى السهل أرْماحَ روما ونُطلِعُ أعلامَها فى اليَفـاع؟
بإذنــك ؟

كليو باترا :

قيصــرُ لا إذنَ لى أينهى ويأمر من لا يطاع؟
تصرَّف بجُثمانه كيف شئــتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّــةُ الليث إلا لَــقًى إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع؟

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقــد حسَم الموتُ ما بيننـا وغَضَّ اللَّجاجَ وفَضّ الـنزاع
فمن حَــقّ اليــومَ بل واجبٌ على أُقدِّسُــهُ أن يُضــاع
أُقبِّــلُ ما قَبَّــل الغــارُ منـ ـك وأهتفُ : أنطونيوسُ الوَداع

[ســـتار]

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، شرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام «مَرْكُو» ولم أنَمْ   وتفـرَّدتُ بالألـمْ
ليت جُرْحى بجُرحه   لَـقِيَ المـوتَ فالتأم
قاتـلَ اللهُ ماضيـاً   قتـل المُفـرَدَ العَلَم
أنطوانُ انفُضِ الكرى   ساعةً وانقُلِ القَدم
قمْ كأمسِ اغنَمِ الهوى   واشربِ الراحَ بالنَّغم
وتَخَيَّرْ على المُنَى   وتمتَّعْ من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنا   وتَغلَّبْ على الأمم
وقُدِ الخيلَ فى الوِها   د ووثبًا إلى القِمَم
أيها العينُ أبصِرى   إنما كنتِ فى حُلُمْ!

[ملتفتة الى شرميون] :

يا شرميون بلغنا موقِفًا حَرَجا   لا الرأىُ ينفعنا فيه ولا الباسْ
لم يَبقَ ثقبُ رجاء كنت آملُه   إلَّا تعرَّضَ حتى سدَّه اليأسْ

[تلقى نظرة على الإسكندرية من الشرفة]

نجمى يُحدِّثنى بوشك أُفوله إسكندرية، هل أقولُ وَداعا ؟
وَتَّيْتُ برِّكِ جدولًا وخميلةً وكسوتُ بحرَك عُدّةً وشِراعا
وأنا اللَّبَاةُ وقد ملأتُك غابةً وأنا المَهاةُ وقد ملأتُك قاعا
قد خِفتُ من بعدى عليكِ ممالكا يُطلِقْن فيك الفاتحين سِباعا
يأتين زرعَك بالرّياح عواصفًا ويجئن ضَرعَك بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها قد دُكَّ ركنُ بنائها وتداعى

شرميون :

يا إيزيس سيدتى بالولاء بطول التعاشر والمُصطحَبْ
عالى ببابك من خدمة ومن صُحبةٍ تُشبهان النَّسب
على أى وجه أدرتِ المصيرَ وقلّبتِ رأيكَ فى المُنقلب ؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب
وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمتِ؟ أبيني فما بيننا من حُجُب
ولى فى حياتِك رأىٌ يُساقُ وليس علىَّ إذا لم يُصب

كليوباترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العتيد يخافُ انتحارى ويخشى الهربْ
وليس الذى يشتهى لى الحياةَ ولكن له فى حياتى أرَب

له فى غـد موكبُ الفـاتحيـ ن إذا أقبلوا فى جلال الغَلَب
يجرُّون فى رومـة الأُرجوانَ وقد برزتْ فى الثياب القُشُب
وتزدانُ بالغـار هاماتُهـم إذا ارتفعت فى الخميس اللَّجِب
يُحـاولُ قيصـرُ منى المُحالَ ويذهب فى غير وجه الطلب
يُريـدُ ليعرضَنى فى غـد على شعب روما كأنى سَلَب
ويفضحُ مصـر وسلطانَهـا وتاجَ العصور وعرشَ الحقب
لقدساء تدبيرُ أكتافيوسَ ولم يلقَ من خُدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حسٌّ قادمِ

هيلانة :

أجلْ دبيبُ حارسٍ أو خادمِ

كليوباترا :

بل حارسٌ جافٍ من حَرَس القصرِ
مُعـربِدُ الخطـو من نشـوة النصرِ
لا تسـعُ الأرض رِجليهِ من كِبْرِ

شرميون :

مَلْكتى دعى هذه الفِكَرْ
جندُ رُومةٍ يَعبُدُ البِدَرْ
فى سبيلها يركبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى؟

الحارس : رسالة من عبد
هل تأذنين ؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلِكَةُ قد جا ءَ إلى القصر غلامْ
فى ثياب الحقل حُلوُ الـ ـشكل ممشوق القوام
جادل الحُرَّاسَ فى حِذ ق ورفق بالكلام
يَدَّعى أن أباه كان عبدًا للمَقام
ناله بستانُ تين من أياديك الجسام

فهْـو يهُـدى لك باكو رتَــه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَنــاه فى يمينــهْ
جاءَ فى الميقات يُهـدى لىَ باكورةَ تينــه

[للحارس]

ألا تَقْبَــلُ يا حــار س منى هـذه البَدْره ؟

الحارس : بشـكران وهيهـات على الشكرانِ لى قُـدْره

الملكة : والآن اوتُحْضِرُلى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا

إنى نسيت البَسطَ والمزاحا

الحارس : علىّ السـمع والطـاعه سآتيك بـه الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة : يا شرميونُ تعلّمى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى
إن التى حُرِستْ بأبطال الوغى باتت تُصانعُ سِفْلَةَ الحراس

[يدخل حابى فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى نعم وتلك نظرتهْ وهـذه مشيَتُه وخَطرتُه
يا ليت شعرى ما تكون سَلّتُهْ ؟

حابى : تحيــةٌ للمَــلِكهْ ونعمَــةٌ وبَرَكهْ
ونفسُ عبــدها لهـــا وكلُّ ما قـد ملكه
ســيدتى جئت إلى بحـرك أُهــدى سمكه
أحمِـلُ تينـا ولـو اسـ ـتطعتُ حملت مملكه

حابى : ســيدتى

الملكة : أُدنُ فإنــه ابتعــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : ســيدتى

الملكة : حابى ، أنوبيسُ اجتهدْ لنا وأنجز الغـداة ما وعدْ!
يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقى مملكتى عارَ الأبد
جئتَ كما يأتى لوقتـه المَـدد
وَفَيْتَ لى حابى ولم تكنْ تَـفى ضع السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفـ
حتى ترى كيف يكونُ مَوقفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيَّـة رهبـةً إنَّ المنيـةَ فى رقاب النـاس
آسى الجراح جَزعتُ عند لقائه والنفسُ تجـزَعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بِساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلاشربُ هذى الكاس
يا خادميّ بل ابنتيّ تلطّفا فى البحث حتى تأتيا بأياس
فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أَجود عليه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا إنه بالقُرب منكِ
هو فى المقصورة الأخـ ـرى مع الباكين يبكى
فكُره فيكِ ولا يجـ ـسُر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صحبى بَعد طول سرورهم قعدو إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم يا شرميونُ لينظروا جَلَدى فيَهدأ بعضُ ما يَجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تغنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ضحيةُ الأنانيهْ
جَنتْ عليها غُربَةَ الـ ـأسرِ الأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الـ ـبرِّ بوّة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة بعد العيون الجاريه

يا جارتا شأنك لا يُشْــبِهُ إلا شانيــه
لم يبق من مُلكى العريـ ـض غيرُ دار خاويه
وكلنا ذابــلةٌ عمــا قليــل ذاويــه
زال النعــيم وفــرغـ ـنا من حيــاة فانيــه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [الى أنشو]:
أنشــو يعزُّ علىّ أنك ساهمٌ يبدو عليــك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قولٌ يَسُرُّ وضحكةٌ إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعت يسرنى أعلى سرورى اليوم أنت قدير؟

أنشــو : ســـيدتى جــرى بمــا فيــه سرورُك القــدرْ
من لا تســـرُّه الســما ءُ لا يســـره البشـــرْ

الملكة : أياسُ، هل من صوتٍ غَن نشــيدَ المــوت

[أياس يغنى هذا النشيد]

يا طيبَ وادى العــدَمْ من مــنزل من مــنزل
لم تَمش فيــه قــدمْ للعُــزَّلِ وادٍ خَــلِ
أنــا فيــه لحبيــبى وحبيــبى فيــه لى

* * *

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ واحملْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوعِ السِّراعْ إلى شُطوطِ النجاه

* * *

شِراعُك الفِضِّى فى لُجِّه التِّبرى
كالحُلْمِ فى الغَمضِ يجرى ولا يجرى

* * *

فى ظلِّ ليلٍ ساجْ أقسم لا يَسرى
مُغلَّلِ الديباجْ مُطيَّبِ السِّتر

* * *

فى يقظةٍ يَظهرْ لى أم أرى حُلْمَا
فُلْك من الجوهر يَختَرِقُ الظُّلما

* * *

على الدجى لمَّاح تَحسَبُهُ نجما
ليس به ملّاح يسلُكه اليمَّا

* * *

أضْوَى من الفجر فى ظُلمة الأسداف
من نفسه يجرى لم يُجْرِه مِجداف

***

مَـدّ شِـراعَ النـورْ ياحُسنَ ما مـدّا
كاللـؤلـؤ المنثـور لـو ينفَـحُ النَّـدّا

***

يـا لكَ من زورْقْ مَـلّاحُه الأقـدارْ
ينجـو بـه المُغـرَقْ من لُجّةِ الأكـدار

[يدخل الحارس]

الملكة : ما وراء الحارس؟

الحارس : الطا عة ياذاتَ الجـلالهْ
قائـد يحمِـلُ من قيـ ـصـرَ أكتافو رسالهْ

الملكة : أدخـله ، أدخـلْ رسـولَ قيصـرْ

[يخرج الحارس و يدخل القائد]

القائد : قيصرُ العـالى إلى سـ ـيـ ـدتى يُهـدى التحيهْ
هـو فى الشُّكنة بالقر ب من الدار السنيـه
يُظهِـرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيَّه
ويقولُ الأمرُ ما تأ مُرُ فى الاسكندريه
ولهـا الوادى وما يحـ ـمِـلُ مُلْكا ورعيّـه

وبنوها يرِثون الـ ـمُلكَ من روما الوصيه
وإذا حلّتْ بروما وجدت روما حفيّه
نتلقّاها كأغلى درة فى القيصريه
ما الذى تقترحُ المَلْـ ـكةُ ما تُملِى عليّه
لتِقلْ سيدتى حا جتَها تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حلت بروما وجدت روما حفيه !
نتلقاها كأغلى درة فى القيصريه !
[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القائدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأَداءْ
بلِّغَنْ قيصرعنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زِدْ أمنيةً قد بَقِيَتْ لى ورجاء
أنا لا أكتمُهُ ما سَرَّ من أمرى وساء
لِىَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسِىَ يَزْوِيه الخفَاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء

حبـذا لـو زارنى قيـ ـصرُ فى هـذا المساء
وله الشكرُ إذا لم يأتِ أو إن هـو جاء

القـائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبَات
ولِمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعاً ويسعى له مُستعجِلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسٌ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العتَبَات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القـائد :

إذن فَهِيَ لى تلك من هفَواتى

[يخرج القـائد]

كليوباترا :

أرانىَ لم يُحسِنْ إلىَّ مُعاصرى ولم أَجِدِ الإنصافَ عند لِداتى
فكيف إذا ما غيَّبَ الموتُ ذَادتى وبَدَّد أنصارى وفَضَّ حُماتى!
كأنى بَعدى بالأحاديث سُلِّطت على سيرتى أو وُكِّلتْ بحيـاتى
وبالجيل بعد الجيل يَروى زخارفاً فمن زور أخبـار و إفك رُواة
يقولون أُنثى أَفنت العمرَ بالهوى بهيميَّـة اللـذات والشهوات

فِـدًا لغرامى بالرجال وحُسنِهم غرامُ الغوانى أو هوى الملِكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسنِ فتنتى ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلات
ولم يَسْتَثِرْ وَجدى من الروم فتيةٌ جُنون العــذارى فتنةُ الخَفِرات
ولا كلُّ غصنٍ من بنى مصرَ مائلٍ يَطــيرُ إليــه قلبُ كل فتــاة
يموتون بى عشقًا و يَشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماـت
ولكن عشِقتُ العبقريَّةَ طِفـلةً وفى الغافلات البُلْهِ من سنواتى
كلِفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنَبات
إذا هب من غرب البلاد تلفَّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تعــثَّرَ حظى بعــد طول سلامة وأقلع نجمى بعــد طول ثبــات
ومن يَمش فى وَرد الأمور وشَوكِها يَعُــدَّ الخُطا أو يحسِبِ العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحبــا بالسَّــلَّهْ والــرُّقُبِ المُطِــلَّهْ
الكافيــاتى الــذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابى]

كليو باترا :

أدخلى بى يا شرميون على طِفْـلى أُودِّعْهمُ الــوَداع الرهيبــا

فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صدرك الحَفِىّ الرحيبا

[لحابى وهيلانة] :

ولدىّ أهجروا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجةٌ وفيها فضولٌ يُرهِقُ الحبّ واشيا ورقيبا
خلّيا عنكما المدائنَ يا بنْـتُ فضوضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبَةَ حقلاً طيبَ الماء والهواء خصيبا
غَرسته يد الشباب فأضحى وارفا كالشباب حُسنًا وطيبا
ألِفَ الحبُّ من نواحيه أيكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمِعُ البُلبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفةُ العَنْدليبا
أُفُقٌ لا يُظِلُّ إلا مُحبًّا وثرى لا يُقِلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تريا الماءِ للحَبابِ لعيبا
وسلا الوردَ هل تنَفّسَ فى الور د وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدركا لذةَ الشروق ولمّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليو باترا وشرميون]

حابى :

هيلانُ، هذا مقالُ النصح من مَلِكٍ فما تَرَيْنَ وما تَنْوِين هيلانا
هلُمَّ طِيبةَ ننزلْ فى حمى آلهها ونَبْنِ مِثلَ بناء الطير دُنيانا
كطائرَيْن على بحرٍ وعاصفةٍ قد آنسا من وراء الشَّط بستانا
تداركَتْنا أبرُّ المالكات به وأشرفُ الناس إحساسًا ووِجدانا

هيلانة :

حابى، عرفتَ الحلال الطيّبات لها وكنتَ أمس أقلَّ الناس عِرفانا

حابى :

خلِّ الجفاءَ حياتى إن ساعتَه مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا
اللهُ يشهدُ أنى قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأى نسيانا
وأننى اليوم أبكيها وأندُبها ولا أقيسُ بها فى الطهر إنسانا
اليوم ضحّتْ وزكّاها الفداءُ كما زكّى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التى شب فى نَعمائها صِغَرى ونبّهتْ لى سُلطانُها شانا
إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابى :

والحبُّ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابى أراها أزْمَعتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ

فاذهبْ بِجئْ بأنوبيس فعسى يردُّ الفاجعه

حابى : وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر

فى غدٍ أيها المَلا كُ الى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة : ويح حابى اعتقادُهُ أن سأحيا فنلتقى

ليتنى نِلْتُ قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليوباترا وفى أثرها شرميون]

كليوباترا :

بروحى وإن لم تبْقَ منى بقيَّةٌ صغارٌ ورائى ذُوَّقُ اليُتمِ نُوَّحُ

أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى حَمَلتُ عليهم ما يَجِلُّ ويفدَحُ

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يَرضى لى ولا النُبلُ يَسمَح

فصفحًا صغارى إن شَقِيتمُ بمصرعى وإنى لأرجو أن تَغضوا وتصفحوا

وَداعا صغارى صَيَّرَ اللهُ يُتمكم إلى خير ما يَكفى اليتامى ويُصلح
أطفتُ بكم والنومُ تَسرى سِناتُه على صفَحات كالأهِلَّة تلمَحُ
وما منكُمُ فى الحزِّ إلّا حمامةَ عليها طليلٌ ناعمَ الفَرْعِ أفيح
تنامُ وما تدرى الكرى ما وراءَه ولا الصبحَ فى ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدوا على الدنيا كأمسِ طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبَحَ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيـ ـن وأنت شرميون
كفكفا الدمعَ فلا شد ة إلّا وتهون
واعلما بنتيَّ أن الـ ـبؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلى وضلالى وخلتْ كأحلام الكرى آمالى
وصحوتُ من لَعِب الحياة ولهوها فوجدتُ للدنيا نُحَارَ زوال
وتلفّتتْ عينى فلا بمواكبى بَصُرتْ ولا بكتائبى ورجالى
ووطِئتْ بِساطى الحادثاتُ وأهرقتْ كأسى وفضَّتْ سامرى ونِقالى
إِزيسُ ينبوع الحنان تعطّفى وتلقّى لضراعتى وسؤالى
أنت التى بكت الأَحبَّةَ واشتكت قبل الأرامل لوْعَة الإرمال
إنى وقعتُ على رحابِك فارحمى ذلَّ المُلوك لمجدك المُتعالى

هل تأذنين بأنْ أُعجِّل نُقْلتى ... وأَحُثَّ عن دار الشقاء رِحالى
وعُلاكِ ما أدعُ الحياةَ جبانةً ... أو ضِيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعْتُ بعبقرىِّ جمالها ... وتمتعتْ من عبقرىِّ جمالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى ... وقَرَنتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدتْ أبطالَها ... فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشْهَدُ سِيرتى ... ما كنتُ من أمى سوى تِمثال
منها تناولتُ الرِّياءَ وِراثةً ... وأخذتُ كلَّ خديعة ومِحال
وقسوتُ قسوتَها ولِنتُ كلِينها ... واقتستُ فى صَدّى بها ووِصالى
ولربما رَشَدتْ فسِرتُ برُشدها ... وغَوَتْ فأغوتْنى وضل ضلالى
ووجدتُها حبًّا يَفيضُ ولذةً ... فجعلتُ لَذَّاتِ الهوى أشغالى
يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت ... فيه الحياة وليلتى بليالى
ولقد لَقِيتُ من الحياة صَبيّةً ... ما جل من بؤس ورقة حال
نخلعتُ مُلكى طفلةً وشَردتُ فى ... صدر الصبا ورأى المَكارهَ آلى
شرعتْ علىَّ السوطَ فى كُتّابها ... واليومَ تَضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجِد ... بك أنْ يُسابقَ واقعَ الآجال ؟

يومى أعجّله ولو لم أنتحر   للقيتُ يومًا ماله من تالى
ياموتُ أنت أحبُّ أسرًا فاسبِنى   لا تُعطِ روما والشيوخ عِقالى
ياموتُ لا تُطْفِئْ بشاشة هيكلى   واحفظْ ظواهرَ لمحتى وجلالى
ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما   سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أموتَ كما حَيِيتُ كأننى   بيتُ الخيال ودُميةُ المثّال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ   وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سِرْبى الى أنطونيو فى نَصرتى   ورُواء جلبابى وزينة حالى

[تقوم الى إحدى السلال وتكشف التين عن أفعى] :

هلُمّى الآن مُنقِذتى هلُمّى   وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شَرَبتُ السمّ من فيكِ المُفدَّى   بسلطانى وزِدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا   شفاءُ النفس من سُودِ الليالى
وبعضُ السم تِرْياقٌ لِبعض   وقد يَشفى العُضالُ من العُضال
دعوتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ   فبُعدًا للحياة وللنّضال
هلُمّى عانقى أفعى قصور   بها شوقٌ الى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصّتْ   جواهرَ أسرتى وحُلِىَّ آلى

فرمتُ الموتَ لم أَجبُنْ ولكن لعل جلالَه يَحمي جلالى
فلا تمشى على تاجى ولكن على جسدٍ ببطن الأرض بالى
وقد علم البريّةُ أن تاجى نمتْه الشمسُ والأسرُ العوالى
يُطالبُنى به وطنٌ عزيزٌ وآباءٌ ودائعُهم غوالى
أأدخلُ فى ثياب الذل روما وأُعرَضُ كالسّبيِّ على الرجال؟
وأُحدَج بالشماتة عن يمينى ويَعرِضُ لى التهكُّمُ عن شمالى؟
وألقَى فى النّديِّ شيوخَ روما مكانُ التاج من فَرْقَىّ خالى؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى قصورَ العزّ والغُرفَ الحوالى؟
وتَحكُمُ فىّ روما وهى خَصمى وتُسرفُ فى العقوبة والنّكال؟
يَرانى فى الحبائل مُترَفوها وقد كان القياصرُ فى حبالى
إذن غيرُ الملوك أبى وجدّى وغيرُ طرازهم عمّى وخالى!
سأنزلُ غيرَ هائبةٍ إذا ما تلمّظت المنيّةُ للنزال
أموتُ كما حييتُ لعرش مصر وأبذُلُ دُونه عرشَ الجمال
حياةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنايا تَعالَىْ حَيَّةَ الوادى تعالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتيَّ وُدّى ... هلُمّا ... زيِّنـانِى ... ... للمنيـهْ
غلّلانى ... طيِّبـانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
ألبسانى حُـلَّةً ... تُعْـجِبُ أنطونيو ... سنيـه
من ثيابٍ ... كنتُ فيها أتلقـاه ... ... صبيه
ناولانى التـاج ... تاجَ الـشَّـمس ... فى مُلْك ... البريه
وانثرا ... بين ... يدىْ ... عرشى ... الريا ... حين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبترا و يالهـفى عليـك يا كلـو بترا
وَصيفاتُك فى الدنيـا وَصيفاتُك فى الأخرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبتِ اليوم بالدنيـا كلـو بترا
تعـالىْ أيهـا الأفعَى أريحيـنى أنا الأخرى

[يدخل أنو بيس وحابى]

أنو بيس :

انسلتِ المُهرَة من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد!

حابى :

هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ

على الفتاة الحُرّة النجيبهْ

[يتحسس جسمها]

يا للحياةِ ماتنى دبيبا أبى ، تأمّلْ جسمَها الرطيبا

واسمعْ تجدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس :

حابى نسيت حُقّـةَ النجاة !

حابى : هيهاتِ أَعصيك أبى هيهاتِ

إن أَنسَ أَشياءَك أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُـــذْها :

أنوبيس :

بل اسكبْ فى فم الفتاةِ لعلها تصحو من السُّباتِ

[يشتغل حابى بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفِـدا فوجدتُ عندك فوقَ ما أنا راجى



بنتى رجوتك للضحية والفـدا فوجدت عندك فوق ما أنا راجى

(صفحة ١٠٨)

إن تُصبحى جسدًا فنفسُك حرةٌ وعُلاك سالمةٌ وعِرضُك ناجى
سيقولُ بعدك كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن فى سبيل التاج

[ثم يلتفت إلى جثة شرميون] :

وأنتِ أيضًا شرميونُ جِيفهْ مُتِّ ولكنْ مِيتةً شريفهْ
ما أعظمَ المَلْكةَ والوصيفهْ !

حابى : أدنُ أبى ألقِ النظرْ يا لَعجائبِ القدرْ !

أنو بيس : أحدث ترياقى الأثرْ؟

حابى : أنظرْ أبى ترياقَك الـ ـمحسن ماذا منحا ؟
أنظرْ فهذا مَلَكى من رقدةِ الموتِ صحا
قد فتح العينين بعـ ـد اليأس من أن تُفتحا
وهذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا
مولاى قد قَرَّبتَ من سعادتى ما نَزحا
أنت الذى رَددتها رُوحًا وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا ويح لى ! ويحَ ابِيهْ هل صَدَقتْنى عينِيهْ ؟
حابى، أفى الدنيا أنا؟

حابى : بل أنت دنياى هنا

هيلانة : منذا حنى عليه حتى بعثت حيّه ؟

حابى : أبى الذى شفاك يا ملاكى .

أنوبيس : لا بل ملاكُ الحب قد شفاكِ

وأدمعُ الإخلاص من فتاكِ

هيلانة : أبى لقد مرّ علىّ الموتُ وكنتُ من عذابه نجوتُ

علامَ حلتَ بينه وبينى؟ الموتُ لا يُذاق مرّتين

[ترى جثة الملكة وهى تتلفت]

رحماكِ آلهةَ الوادى ذهلتُ فلم أذكرْ ملاكاوراء العرش مُضطجِعا

بالأمس، لا، لا بل اليومَ التحقتُ به صُرعتُ بالناقع السارى كما صُرِعا

لقد رحلنا عن الدنيا الغَرور معا مالى رَجعتُ إلى الدنيا وما رَجَعا

ليت الطبيبَ الذى داوى فأخرجنى إلى الحياة على الدنيا به طَلَعا

مليكتى ، ربّتى ، صفحًا ومغفرةً إن المُروءةَ كانت أن نموت معا

الكاهن : بُنيّتى ...

هيلانة : صَه أبى ،

الكاهن : لا أنتِ واهمةٌ

فلستُما فى مُلاقاة الرّدَى شَرَعا

وقفتما موقفا فى الخطب مختلفا لو جربت فيه غير الموت ما نفعا

حابى : تعالى نحى فى الحقل مع الطير كما تحيا
هلمى الحب هيلانـ ـة فالحب هو الدنيا
أبى دونك باركنا وإن شئت فشاركنا

أنوبيس : إذا فارقت محرابى فمن يبكى على مصرا ؟
سأبقى هاهنا ابنى إلى أن أقضى العمر
هلما ابنى باسم الـ ـه سيرا وابنيا الوكرا
هلما جنة الوادى هلما طيبة الغزا
لئن فرقنا الدهر فقد تجمعنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق] :

أنوبيس : البوق دوى قيصر أقبل

[يدخل حارس]

الحارس : مولاى قيصر

[يتنحى عن الباب و يدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس]

أنوبيس :

ما يبتغى قيصر من أسيرته ؟ إن التى أعدها لزينته

يَدخل روما وهى فى كتيبته — تزيدُ فى موكبه وقيمته
ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئته — بُورك فى النيل وفى عَقيلته

قيصر :

آلهةَ الرومان ! ماذا أرى؟ — إمرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها — ولم تزلْ تَسخَرُ بالكائد
فى الجسد الحسىّ تمنّيتُها — لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ — قيصرُ والطبيبُ !
يَغدُرُها وعهدُه — ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلًا — ولكن لا أرى أثَرَ الجراحِ !
أليستْ فى الفَناء أرقَّ لونًا — وأندَى من رياحين الصباحِ
فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ — أبا السم الزُّعاف أم السلاح؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]



عجيب ياطبيب أرى قتيلا ولكن لا أرى أثر الجراح !؟

(صفحة ١١٣)

أنطونيوس :

جبين مُشرقُ الغُرَّهْ وَوجهٌ ضاحكٌ نَضِرَهْ
وعينان كأنَّ المو تَ في جَفنيهما كَسْرَهْ
وهذا فَمُها تبدو الـ ـمنايا عنه مُفترَّه
ولكن قيصرٌ ادنُ أنظُرْ هنا السرُّ هنا العبره
فبين السِّحر والنحر كمثل الخدش من إبره
مكانُ الناب من صِلٍّ شديد البأس والشِّرَّه

[تلدغه الأفعى]

إلهي ، قيصري ، آه لقد مَسّتْ يدي جَمْرَهْ
سَرى السمُّ بأعضائي وعَمّتْ جسدي فَتْرهْ
وجاءت سَكْرَةُ الموت فلا

أكتافيوس :

ويل !
وويح !..

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحافر

قيصـــر :

وَداعًا كلوبترا الى يـوم نلتـقى ... وتَنفُضُ عنها الهامدينَ المَقـابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا ... فلا الثأرُ منْجاحٌ ولا الحقـدُ ثائر
وما استحدثَتْ عند الكرام شَماتةً ... صُرُوف المنايا والجُدودُ العواثر
وَداعا و إن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ ... حُسامَيْهما أوطانُنـا والعَشـائر
تَحدَّيتنى بالمـوت حتى قهرتنى ... ومالىَ سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدى ومُتِّ عزيزةً ... وأيـدى المنـايا للقيود كواسر
وأنت التى نازعت روما مكانَها ... وجَرَّتْ بناديك القيودَ القياصر
لعبتِ بأنطونيو و يوليوسَ حقْبَةً ... كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلّا سـيفُ رومةَ باترًا ... أصيبَ به سـيفٌ لرومـةَ باتر
زَجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مُكرَهًا ... وفى الحرب إن لم تَردَعِ السِّلمُ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثـله ... يُطاولُ أنسابَ الملوكِ المُصاهر
وَداعًا عروسَ الشرق كلُّ وِلاية ... و إن هَزَّتِ الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنو بيس :

أكثرى أيها الذئاب عُواءً ... وادّعى فى البلاد عِزًّا وقهرا
أنشدى واهتِفى وغنّى وضِجّى ... واسبحى فى الدماء نابا وظُفرا
لا وإيزيسَ ما تملّكتِ إلا ... وادياً من ضَياغم الغاب قفرا
قسَماً ما فتحتُمُ مصر لكن ... قد فتحتُم بها لرومة قبرا

« ستار الختام »

نظــرات تحليلية

كليوباترا والتاريخ :

فى عصر من عصور التطور السياسى الدائم على عرش مصر، وفى النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، احتكت عظما الامبراطورية الرومانية بالسياسة المصرية القديمة، وطوت فى هذ الاحتكاك آخر صفحة من تلك المدنية الزاهرة التى اصطبغت بها مصر فى ظل البطالسة وتحت حكمهم أكثر من ثلاثة قرون .

وجاء دور المؤرخ ليسجل أنباء هذا الاحتكاك فكان من حظ العلم :

(أولا) أن استقى هذا التاريخ مادته من مصدرين كانا كل وسائل التاريخ القديم . فالمصدر الأول آثار يعرض لها عادة فى مثل هذه العواصف السياسية المضطربة غير قليل من التزييف والضياع . والمصدر الثانى رواة يجتهدون فى رواية الحوادث اجتهادا، فيخطئهم التوفيق أحيانا، فيروونها لا كما كانت ولكن كما اشتهوا أن تكون .

(ثانيا) أن نهضت بهذه المهمة الخطيرة أقلام، إما رومانية وإما مدينة لروما هوى أو ثقافة ، فسجلت هذه الأقلام تاريخ هذا الانتقال السياسى فى أسلوب قصصى ، فاز فيه قياصرة

الرومان بأكاليل الغار كلها ، فالظافر من بينهم بطل ، والمخذول منهم ضحية ، وللضعيف على كل ما فعل أو أسف علل قوية من هوى هذه الأقلام فى حين أن الملكة المصرية المظلومة — كايوباترا — الممثلة الأخيرة لمجـد البطالسة وسلالتهم ، والتى سوّى على حساب سمعتها وكرامتها وأفول نجمها هـذا الحساب الخطير، لم تصب منه إلا ركاما من التبعات والآثام واللعنات .

ظهرت حية النيل العجوز — كما نعتوها — فى هذا التاريخ ، وعمـدته « بلوتارخوس » ، وفى معظـم الروايات التى استوحته واستقت من معينه ، فى مظهـر امرأة خطالة متهمة فى عفتها من حيث هى امرأة ، وفى جلالها و إخلاصها لبـلادها من حيث هى ملكة ، مجرد ...

« ... أنثى أفنت العمر بالهوى بهيميـة اللذات والشهوات »

خاضعة فى كل أدوار حياتها السياسية لشهوة مذبذبة ، تدفع بها رخيصة الى كل صاحب مجد أو جاه ، متصلة — ما اتصلت فى هواها — ببطل ، منفصلة — ما انفصلت — عن « حطام مبعثر مستباح » ، دائبة البحث عن فريسة جديدة تستل آمالها ، وتسلبها جلالها ، وتهيض من جناحها المحلق فى سماء المجد والخلود .
وعجيب أن تقفر حياة كهذه الحياة الحافلة بالمـآسى إلا من هـذا

الركن الدنس، وعجيب ألا يرى أولئك القصاص فى هذه النفس الطموح ظلا لأمل خير أو حلم نبيل، وعجيب أن تجثم فى كل ناحية من نواحيها رذيلة تهب المداد لهذه الأقلام !

مرمى الرواية :

أليس المؤلف المصرى إزاء هذا الاضطهاد الصارخ لهذه الملكة المصرية، بحكم الثلاثة القرون التى قضاها أجدادها العظماء على ضفاف النيل، مستقلين عن كل نفوذ أجنبي، أبرياء إلا من العمل المتصل لمجد مصر ورفاهتها، مستحيلة دماؤهم قطرة فقطرة الى دماء مصرية خالصة على توالى الأيام. أليس المؤلف المصرى فى حل — مادام البحث العلمى يكشف بين الحين والحين فى هذا التاريخ المتهم عن حلقات ضائعة أو أوهام أنزلت فيه منزل الحقائق — من إنصاف هذه المصرية المضطهدة، ولو إلى الحد الذى يتفق مع هيكل هذا التاريخ المجرد، ولا يحرمها على الأقل من سمو الغاية ونبالة المقصد ؟

أعتقد أنه ليس فى حل من هذا الإنصاف فقط، ولكنه مسئول عنه الى أن يصل البحث الحديث فى تقرير حقيقة التاريخ القديم الى آخر مداه فيعز من يشاء ويذل من يشاء .

على هــذا الأساس يضع مؤلفنا المصرى اليــوم فى "مصرع كليو باترا" صورتين جديدتين : إحداهما لتاريخ كليو باترا فى قليل من التحوير المنطق المعقــول لتاريخها القــديم ، والآخرى لحياة كليو باترا حريصا فيها على أن تحاط بنفس الجوّ الظنين الذى يحيطها به رواة التاريخ القديم ، مانحا إياها الحق الأكبر فى الدفاع عن نفسها وعن سياستها وعاطفتها ، غــير تارك لسواها من أشخاص الرواية إلا حظا ضئيلا من هذا الدفاع ، وهو إذ يمنحها هذا الحق دون سواها من أشخاص الرواية إنما يحرص أولا على أن يترك لأولئك الأشخاص مطلق الحرية فى تحديد هــذا الجوّ الظنين ، وثانيا على ألا يقسو فى مس الكرامة العامة للتاريخ ، وثالثــا على أن يترك الباب مفتوحا لتحقيق مالهذا الدفاع من وجاهة فى نظر البحث الحديث المنصف .

كليو باترا فى نظر التاريخ القديم :

ولدت كليو باترا ســنة ٦٩ قبل الميلاد ، وكانت على أن تبنى بأخيها الأكبر وتتولى العــرش معه ، فنوزعت فى هذه الشركة ، ففرّت إلى ســوريا لتعبئ جيشا هناك تســتعيد به تاجها المفقود . وهناك صادفها يوليوس قيصر ، فوقعت من نفســه ، فمكنها من العرش شركة مع أصغر أخويها ، فما لبثت أن قتلته مسموما وتبعت قيصر إلى روما فاحتفى بها حفاوة أثارت سخط الرومان .

وقتــل قيصر فترددت كليو باترا أى الصفين تتبع : أصف واتريه أم صف الموترين فيه ، حتى إذا تم النصر للخلفاء قيصر على قتلته دعاها أنطونيوس الى طرسوس لتقدم حسابا عن هذا التردد المقصود، وقد لبت دعوته فسارت اليه فى موكب بحرى نخم تجلت فيه روعة الشرق وجلاله وغناه، وكانت يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمــرها على أبهى ما كانت من سحر وفتنة وجمال، فمـا لبث أنطونيوس أن رآها حتى افتتن بها وضحى فى سبيلها بمكانه وكبريائه ، وأخيرا بملكه ومطامعه وحياته . وقضيا الشتاء التالى فى الاسكندرية فى غرام نسيا فيه كل شىء ، وعلى أن أنطونيو قد رجع الى روما وتزوج من أكتافيا شقيقة أكتافيوس ، فقد عاد الى كليو باترا وأقام معها وسخا لها ولأبنائها بالعطف والتكريم ، وفى نشوة هذا الجنون كان اسمه يتضاءل فى روما ، وكانت قواه السياسية والحربية تخور .

وفى سنة ٣٠ قبل الميلاد اشتبك القيصران فى وقعــة أكتيوم البحرية ، وكانت كليو باترا بطبيعة الحال تؤازر بأسطولها أسطول أنطونيوس ، ففرت أثنــاء المعركة وفــر فى أثرها حبيبها المفتون ، وبذلك كتبت عليهما الهزيمة الأولى ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة برية على أسوار الأسكندرية ، وكاد النصر فى أولها يواتى أنطونيوس ثم سرعان ما تنكر له وتم عليهما الخذلان الأخير .

وحاولت كليو باترا أن تأسر بجمالها القيصر الظافر، وأن تفعل به ما فعلت بأنطونيوس ، فاشتركت معه فى مفاوضات لصالحها الخاص ، وأرسلت الى أنطونيوس من أوحى اليه بموتها، فاتكأ على ظبة سيفه حتى إذا علم فى احتضاره كذب هذا الوحى، أمر أن ينقل اليها حيث جاد تحت شفتيها بالنفس الأخير . وأيقنت كليو باترا بعدئذ أن القيصر الظافر إنما يخدعها عن نفسها، وإنما يريدها شارة ممتازة فى موكب انتصاره، فانتحرت تاركة وراءها بنتين من أنطونيوس كفلتهما أكتافيا ، وولدا من يوليوس قيصر (قيصرون) قتل فى عهد أكتافيوس ، وجسدا هامدا ضمه القبر إلى رفات أنطونيوس ، وذكريات حية خالدة ...

فضمن عن الملوك والقواد وصرن وحى شاعر وشادى
وفتنة اليراع والمداد

وجوه الاختلاف الأساسى بين الحوادث التاريخية والحوادث الروائية

يهمنا من هذه الحوادث إزاء الرواية ما تناول الأيام الأخيرة من حياة كليو باترا، تلك الأيام التى لم تتناول الرواية سواها، فنرى :

(أوّلا) أن فرار كليو باترا من وقعة أكتيوم كان جبنا وغدرا فى التاريخ :

وترى أثر هـذه النظرية التاريخيـة فى الرواية حيث يعتب أنطونيوس على كليوباترا :

وقلت انسحبت ضـعفا وقال النـاس بـل غدرا

فى حين أن هذا الفرار فى الرواية جزء من سياسة كليوباترا — وسوف نبسطها بعـد قليل — ويدل على ذلك وعلى روح هذه السياسـة قول كليوباترا .

فتـأملت حـالـتى مليـا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سللت شراعى منـه فانسلت البـوارج إثرى

(ثانيـا) أن التاريخ لم يذكر أن جيش كليوباترا فر من المعركة البرية بينما سجل المؤلف هذا الفرار فى الرواية تمشيا مع السياسـة التى اختطتها كليوباترا لنفسها ، وفى ذلك يقول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

(ثالثـا) أن كليوباترا هى المسئولة أمام التاريخ عن انتحار أنطونيوس بينما يبرئها المؤلف من هـذه التهمة ، ويخلق شخصية خيالية يلقى عليها هذه التبعة ، هى شخصية الطبيب أولمبوس ، ونرى ذلك حيث تتساءل كليوباترا فى لوعة ولهفة :

من نعانى كذبا من قالها لك

وإذ يجيبها أنطونيوس :

« أولمبوس النذل الخؤون »

وحيث نسمع أولمبوس فى الفصل الثانى من الرواية مهدّدا ناقما :

أوروس أنطونيو حسابكما غدا روما الأبيـة لم تنم عن ثارها

وحيث نلمس مكمن الحيلة بين هذه النقمة وذلك الانتقام .

(رابعـا) حاولت كليوباترا تاريخيا أن تتصبى عدوّها الظافر، وأن تغدر حبيبها المخذول، ثم انتحرت عند ما فشلت هذه السياسة، والمؤلف ينزهها عن هذا الإسفاف، ويجعل أوّل لقائها لأوكتافيوس وأوّل اتصاله بها عقب مصرع أنطونيوس ، ثم يجعل من هـذا الاتصال مفاوضات ، ويجعـل فى هـذه المفاوضات خداعا من قيصر وإباء من كليوباترا ، فلا تصبى ولا محاولة إيقاع فى غرام، ثم يجعل انتحارها حرصا على تاج مصر أن يذله العرض فى روما من ناحية، وذلك إذ تقول :

سطت روما عـلى ملـكى ... ...

فرمت الموت لم أجبن ولكن لعـل جـلاله يحمى جـلالى

فـلا تمشى على تاجى ولكن على جسد ببطن الأرض بالى

ووفاء لأنطونيوس من ناحية أخرى وذلك إذ تقول :

أيهـا الذاهب قد آ ن عن الدنيا ذهوبى

أيهـا الخالص ودّا لبس ودّى بالمشوب

... ...

عن قريب ينطوى القبـــــر علينـا عن قريب

صورة تحليلية لأهم أشخاص الرواية

كليو باترا

ما فتئ المؤلف منـذ مطلع الرواية الى مقطعها يؤكد جنسية كليو باترا المصرية و إن تحدّرت من نبعة أجنبية، فقد كان الزمن الطويل الذى قضـاه أجدادها فى مصر — كما أسلفنا — كافيـا لتمصـــيرها .

وعبث أن نختار من الرواية قطعـة دون أخرى لإثبات هذه الجنسية، فالرواية كلها دليل متصل، نسجل منـه على سبيل المثل قولهـا :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وقولهـا :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

ثم قولا آخر احتال فيـه المؤلف على تبرير هـذه الجنسية ، متحاشيا فى هـذا التبرير إلا مجرّد التلميح من بعيد لدمها القديم ، وذلك إذ يقول حابى لزينون :

أخى هـذا أتيـنى وخلى ذاك مقدونى

... ...

كلا الخلين ذو جدّ بأرض النيل مدفون

فليسا فى هوى مصر وفى طاعتهـا دونى

وتصوّر الرواية كليوباترا من نواح ثلاث يستحسن أن نبحثها منفصلة : الأولى من حيث هى امرأة، والثانيـة من حيث هى ملكة، والثالثة من حيث هى شخص سياسى :

كليوباترا امرأة

(١) جميـلة :

وأمام جمالها يتمنى زينون رأسين :

يطأطئ رأسا لمجـد النبـو غ ويخفض رأسا لمجد الجمال

ويناجيها أنطونيوس قائلا :

ردّى على هامتى الغار التى سلبت فقبلة منـك تعلوها هى الغار

ويذكرها وهو يودع الدنيا:

لمـا لقيتك فى الجمال وعزه قهرت قواى الظافرات قواك

وفى احتضاره يهتف بها :

كليوباترا زوديني قبـلة من ثناياك العذاب الشبمات

وهيلانة تتحدث عنها :

لم يحـــو شمسين الفلك

وأنو بيس يلقبها :

شعاع المدائن نور القرى

وحبرا ينبهر أمام كفها ...

عجب عينى لا تقـ ـوى على هذا الضياء

هـذه كـف إله جاء فى زى النســاء

ورسول أكتافيوس قيصر يعجب لمولاه كيف :

... لا يأبى دعوة الحسن طائعا ... ...

وقد كان يوليوس يقوم ببابه ويمثل أنطونيوس فى العتبات

(ب) قوية الثقة بجمالها :

ويوحى من هذه الثقة تناجى الإسكندرية قائلة :

وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا

وتصف عشاقها قائلة :

يموتون بى عشقا ويشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماتى

وحينما تفكر فى الانتحار لم يكن يشغلها من الدنيا شاغل إلا أن تحتفظ فى موتها بهـذا الجمال ويبـدو ذلك أوّلا فى الحـوار بينها وبين أنوبيس :

« ولكن أبى هل يصان الجمال » ؟ « وهل يطفأ اللون » ؟
« وهل يبطل الموت سحر الجفون » ؟

وثانيا عند ماتناجى شبح الموت :

ياموت لاتطفئ بشاشة هيكلى وآحفظ ظواهر لمحتى وجلالى

... ...

حتى أموت كما حييت كأننى بيت الخيال ودمية المثال

وتحدّث عن الحياة فتقول :

إنى آنتفعت بعبقرى جمالها وتمتعت من عبقرى جمالى

(ج) قوية البيان :

قوية يمثلها حابى حيث يقول :

ليسياس إنك قدسمعت حديثها كالسحر فى الآذان حين يدار
تبدو الخيانة فيه وهى أمانة ويرى الثبات عليه وهو فرار

(د) شاعرة :

وفى ذلك يقول لها أنطونيوس :

وقولى الشعر علويا

ويقول للمغنى إياس :

غننى شعر ملاكى غننى شعر الإله

ولها فى الرواية نشيدان : « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »
و « يا طيب وادى العدم »

(هـ) ولوع بالقراءة :

وفى ذلك يقول زينون :

... ... تنسى ملكها يلقاء الكتب أو تنسى هواها

وقد رأينا أن لها فى قصرها مكتبة .

(و) الأمومة لديها كالغرام — وسوف نتحدّث عنه فى موضعه — عاطفة ثانية إذا كان حب المجد و إباء الضيم فيه عاطفتها الأولى :

وقد اشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

(ز) عفة الهوى :

وقد تروع القارئ هذه الحقيقة لأوّل وهلة ، إزاء سلسلة التهم القاسية التى وصمت بها كليوباترا فى الرواية كما يبدو من هذه الأمثلة :

(١) هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام
(٢) أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء ؟
(٣) قد اجترأت على روما البغى
(٤) صرح ابن قل غدرت قل جدّدت بقيصر الثالث دولة الهوى
(٥) ... ... أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات

لكن قليلا من التفكير يردّه الى وجه الصواب فاللهمة الثانية قد رماها بها حابى الذى كان يراها عن بعد فى ضوء الاشاعة السائرة، والذى لم يلبث أن نزل عن بعد رأيه فيها حينما عرفها عن كثب، فعاد يعدها « أبر المالكات » و « أشرف الناس إحساسا ووجدانا » و « لا يقيس بها فى الطهر إنسانا » . والتهمة الأولى قد وجهت اليها من شاب كان يشترك وحابى فى نظرته الأولى اليها ، لكنه لم يقترب منها ليرى ما رآه حابى فى النهاية . والتهمة الثالثة موجهة اليها من قائد رومانى غاضب لكرامة بلاده، أى من خصم سياسى موتور . والتهمة الرابعة صاحبها أنطونيوس، رماها بها ظلما فى ساعة يأس، ثم كفر عنها بانتحاره ، وسوف نتحدث عن وفائها له بعد قليل . والتهمة الأخيرة إنما تجمع فيها كليوباترا خلاصة ما يقال فيها وفى هواها ثم تدفعه فى قولها :

فدا الغرامى بالرجال وحسنهم   غرام الغوانى أو هوى الملكات
فليس الغلام البارع الحسن فتنتى   ولا الرائع الأجلاد والعضلات
... ...
ولكن عشقت العبقرية طفلة   وفى الغافلات البله من سنواتى

وفى قولها والضمير للحياة :

ووجدتها قد خلدت أبطالها   فبسطت سلطانى على الأبطال

(ح) وفية لغرامها مخلصة فيه إلا حيث يصطدم هذا الغرام بوطنيتها .

فأما وفاؤها لغرامها وإخلاصها فبـه فموقفها من أنطونيوس جريحا وميتا وبعد أن لم يعـد يرجى منه خير ولا أمل ، وذكرها له وهى مشرفة على الموت حيث تنادى الموت قائلة :

سر بى الى أنطونيو فى نضرتى   ورواء جلبابى وزينـة حالى

وحيث تنادى وصيفتيها قائلة :

ألبسانى حـلة تعـ   ـجب أنطونيو سنيه

كل ذلك آيات على هذا الوفاء والاخلاص .

وأما تضحيتها بغرامها لسياستها فعلى الرغم من أقوالها « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » و « الحياة الحب والحب الحيـاة » ونحن قربنا له — أى للحب — ملك الثرى » و

هو أعطى الحب تاجى قيصر   لم لا أعطى الهوى تاجى منا

على الرغم من هذه العاطفة القوية التى أظهرتها كليوباترا دائما فى مواجهة أنطونيوس ، والتى لم يؤيدها الأمر الواقع ، والتى إن دلت على شىء ، فعلى أن كليوباترا كانت ككل امرأة سواها ...

(ط) — يداخلها فى حضرة حبيبها أثر المبالغة وروح الرياء ولعلها تعتذر عن ذلك إذ تقول والضمير للحياة :

بنت الحياة أنا ... ...
عنها تناولت الرياء وراثة وأخذت كل خديعة ومحال

نعود فنقول على الرغم من كل هذا إن غرام كليوباترا — كما سوف نرى حينما نعرض لسياستها — ما تعارض يوما مع هذه السياسة ومع ما كانت تكفل به التاج المصرى من حب ورعاية، إلا خرّ هذا الغرام صريعا .

بقيت نقطة أخيرة تتصل بهذا الهوى ، وتلك أن كليوباترا كانت فى ساعات لهوها ...

(ى) تفنى فى هذا اللهو وتستمتع به وتنسى ما سواه .

وحسبنا فى الاشارة إلى ذلك قولها :

فاطو معى حوادث الـ أمس ولا تجدّد
وامض معى فى لذة الـ يوم ودع هم الغد

وقولها :

لتكونن ليلة آخر الدهر تذكر
لا نبالى إذا صفت بعدها ما يكدّر

على أنها كانت تستظل فى هذا الاستمتاع بظل من الوقار يتبارى مع خلاعة الاغراق فيه ، تلك الخلاعة التى كانت سمة العصر

المترف المستهتر التي عاشت فيه ، والتي نكتفي من إثباتها بالإشارة (أولا) إلى قول القائل :

هلا نظرت إلى الأمـيرة إنها سـكرى تعثر فى خليع عذرها

(ثانيـا) إلى اتضاعها فى وليمتها حيث تترك يدها فى يسر لتكون نهبا بشفاه عرّاف صغير .

أما الظل الوقور الذى كانت تستظل به فى هـذه الساعات اللاهية والذى يبدو فى قولها :

اجعلوها وليمـة وبساطا يتبـارى خلاعة ووقارا

فلعلها استمدّته من قبـس دينى ما فتئ يتردّد على نفسها بين الحين والحين . وتبدو ...

(لك) مستمسكة بدينها إذ تهتف بأوبيس فى موضع :

صل من أجلى ولا تنـ ـس صغارى فى صلاتك

وفى موضع آخر :

هذا مقام صـلاتى وهيكلى للضـراعه
ولى خطايا كثير لا تبرح البال ساعه
فادخل وصل لأجلى فمنك ترجى الشفاعه

وفى موضع ثالث :

أبى دخلت نفسى حيرى الزمام حزينه

وقد تركت المصلى وملء قلبي سكينه
إن الصلاة على شدّ الزمان معينه

و بين هذه العفة والوقار من جانب، وهذه المتعة والخلاعة من جانب آخر جهرت كليوباترا بهذا الاعتراف والضمير للحياة :

ولربما رشدت فسرت برشدها وغوت فأغوتني وضل ضلالي

ووصفها أنو بيس بأنها كشعاع الضحى :

يخوض الوحل ويغشى الحلى ويأوي الحضيض ويعلو الذرا
... ...
ولكنه طاهر حيث طاف نقي الذيول عفيف الخطا

كليوباترا ملكة

(١) قوية الشخصية :

وأظهر ما تبدو هذه القوّة في أربع مواضع . (الأول) حينما تدخل على زينون بعد أن لعنها وتآمر عليها فلا يكاد يسمع تحيتها حتى يردّها قائلا :

سلام السماوات في مجدها على ربة التاج ذات الجلال

(الثاني) حيث يقول أوروس :

لولا الوليمة والشراب وجرمة لأميرة الوادي السعيد ودارها

(الثالث) حيث يقول أنطونيوس :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغير ملاك

(الرابع) حيث يؤبنها أكتافيوس :

لعبت بأنطونيو ويوليوس حقبة كما جاء بالمسحور أو راح ساحرا

بيد أن هذه القوة كانت تظهر أحيانا كأنها مشوبة بضعف، لكنه ضعف مصطنع ترى فيه المرأة دائما سلاحا من أسلحة قوتها. فهى حينما تنادى أنطونيوس :

مكانك قيصر لا تذهبن ولا تبرح القصر أهلك أسى

إنما تجرب قوة دلالها ، وقد أفلحت فى هذه التجربة ورأينا كيف استنهضت بهذا الدلال من حماسة أنطونيوس ، وكذلك عند ما تقول لأوكتافيوس :

نخذه من يد الموت ومن عاجزة تبكى

فقد كان ذلك منها تهكما بتهكم ، وقد رأينا كيف وقفت بعد ذلك وقفتها فى إبائها وكبريائها الأعزل ، فاضطرت القيصر المنتصر أن ينتقل فى خطابها من سخرية إلى احترام .

وفى ذلك تقول هى :

فإن تك بى خشية فى النساء فلى جرأة الملكات الكبر

ويقول أكتافيوس :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ولم تزل تسخر بالكائد

(ب) مصلحة :

وفى ذلك تناجى الاسكندرية قائلة :

وشيت برك جدولا وخميلة وكسوت بحرك عدّة وشراعا
وأنا اللباة وقد ملأتك غابة وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا
قد خفت من بعدى عليك ممالكا يطلقن فيك الفاتحين سباعا

(ج) نخور :

ويبدو هذا الفخر على أشدّه حينما تجعل نفسها « ضرة روما » إذ تقول :

اليوم تعلم روما أن ضرتها تقلد الغار من تهوى وتختار

وحينما تقول لحابى :

دع الذود عن مصر لى إننى أنا السيف والآخرون العصا

وحينما تقول :

وقد علم البرية أن تاجى نمته الشمس والأسر العوالى

وحينما تخاطب الاسكندرية قائلة :

« وأنا اللباة وقد ملا تك غابة »

وحينا تسأل العرّاف :

أحضيض يومى الآ خر قل لى أم سماء
خاتم الأيام أو لى باهتمام العظماء

(د) أبيـة :

وآية ذلك قولها لأنو بيس :

أبى لا العزل خفت ولا المنايا ولكن أن يسيروا بى سبيا

وقولها فى وداع حياتها :

أأدخل فى ثياب الذل روما ... ...
... ...
إذن غير الملوك أبى وجدّى وغير طرازهم عمى وخالى

وقولها فى وداع صغارها :

وقد أشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

وفى تأبين أكتافيوس لها :

ترفعت عن قيدى ومت عزيزة

(هـ) تتألف خصومها :

واحتيالها فى اجتذاب حابى اليها عن سبيل حبه لهيلانة خير دليل .

(و) عطوف على أتباعها :

تقول لوصيفتها :

أنت لى خادم ولكن كأنا   فى الملمات أهل قربى وصهر

وتقول لها وصيفتها :

يا رب ذنب ... ...   يتعب العذر فيه مهدت عذرى

وقد أكسبها هذا العطف تفانيا فى حبها من أولئك الأتباع .

فانظر الى هيلانة إذ تقول :

إن التى شب فى نعمائها   ونبهت لى فى سلطانها شانا

إن لم أمت دونها أو لم أمت معها   فما جزيت عن الاحسان إحسانا

وإذ تقول على جثتها :

ليت الطبيب الذى داوى فأخرجنى   الى الحياة على الدنيا به طلعا

وإذ يصل هذا التفانى الى حدّ التضحية بالحياة ، وإذ يتجلى الحزن الشامل على القصر ومن فيه فى الساعة التى أفل فيها نجم كليوباترا وأشرفت على مفارقة الحياة ، أنظر الى كل هذا تجد أن أولئك الأتباع وجدوا فى ظل كليوباترا العطف والرفق والاحسان .

(ز) غفـــور :

ويبدو ذلك فى قولها لحابى :

فمثلك تاب ومثـلى عفـا

(ح) جليـــد :

ونرى أثر هذا الجلد فى قولها :

ياويح صحبي بعد طول سرورهم قعــدوا الى أحزانهـم يبكونا
جيئى بهم ياشرميون لينظروا جلدى فيهدأ بعض ما يجدونا

(ط) تكره التملق :

وفى ذلك تقول لحبرا :

خاـنى من زخرف المـد ح ومن زور الثنـاء

سـياسة كليوباترا

تقول كليوباترا لأوروس :

الحـرب فنـك أورو س والسـياسة فـنى

فهل هذا صحيح ؟

لقد كانت كليوباترا بعيدة النظر حينما عتبت على أنطونيوس عقب انتصاره فى اليوم الأول من يومى المعركة البرية على أسوار الاسكندرية أن ترك خصمه من غير أن يضربه الضربة القاضية بعد أن اقتحم عليه مضاربه ...

تركتهم لغد ؟ هذى مجازفة غد غيوب وأسرار وأقــدار

وقد أثبتت هزيمة أنطونيوس فى اليوم التالى بعد هذا النظر .

وكانت كليوباترا بعيدة النظر كذلك حينما استشفت من خلال ذلك العرض المعسول الذى عرضه عليها أكتافيوس :

ولهـا الوادى وما يحـ ـمل ملكا ورعيـه
وبنـوها يرثون المـ ـلك من روما الوصيه
واذا حلت بروما وجدت روما حفيـه

شبح الحيلة والخداع ، فكادت له كيدا اضطره أن يقف أمام جثتها موقف المنهزم يقول :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ... ...
فى الجسد الحى تمنيتها لم أبغها فى الجسد البائد

هذا من ناحية أخرى فقد اختطت كليوباترا لنفسها سياسة خاصة فى هذه الرواية ، وقد ظلت أمينة على تنفيذها حتى النهاية ، وقد فشلت فى هذه السياسة فشلا أفقدها حبها وتاجها وحياتها ، وأفقد مصر ما كان لها من شبه حرية واستقلال .

ونعرض الآن هذه السياسة ثم نتناولها بالبحث لنرى مواطن ضعفها وكيف انتهت الى هذا المصير .

وكانت كليوباترا أسيرة عواطف ثلاث :

(الأولى) حبها لمصر وحرصها على مستقبل تاجها . وقد رأينا أن الرواية ملأى بدلائل هذا الحب والحرص حينما تكلمنا عن جنسية كليوباترا .

(الثانية) حبها لأنطونيوس . ومن العبث أن نستشهد على هذا الحب بنجواها الغرامية المتصلة وحدها كلما جمع المجال بينها وبين أنطونيوس ، فلقد تتهم هذه النجوى بشيء من المبالغة والرياء ، وخير أن نقصر هذا الاستشهاد على حديثها عنه فى غيبته ، إذ تقول :

علم الله قد خذلت حبيبي

وإذ تقول فى موقف آخر :

هو أنطونيوس ذخرى وطريفى وتليدى

وعلى الوفاء له بعد موته ، وقد أسلفنا عليه الدليل ، ومهما يكن من اتقاد هذه العاطفة فى قلبها فقد كانت لديها كما قلنا عاطفة ثانوية ، كلما تعارضت مع حبها لمصر ، ففى سبيل وطنها كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء ، وكانت تعتقد حقيقة أن :

المجد لا يسأل عن صاحبة ولا ولد

وكانت مخلصة حينما استنهضت حماسة أنطونيوس بهذه الكلمة الجامعة :

عد ظافرا أو لا تعد

وآية استعدادها للتضحية بغرامها فى سبيل سياسة بلادها قولها عقب فرارها من أكتيوم :

علم الله قد خذلت حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذخرى
والذى ضيع العروش وضحى ... فى سبيلى بألف قطر وقطر
موقف يعجب العلا كنت فيه ... بنت مصر وكنت ملكة مصر

(الثالثة) بغضها لروما وإشفاقها من طغيان سلطانها المكين .

ويبدو هذا البغض فى عدّة مواضع . منها قولها :

لا تسيروا على ولائم روما ... سرفا فى الفسوق واستهتارا

ومنها قول أحد القوّاد الرومان لزميل له :

أتسمع ما تقول عدوّ روما ؟

وقولها :

دعوا روما ولا تجروا لها ذكرا

وقولها :

حبرا أعندك سحر ... يشل طاغوت روما؟
ويجعل الناس فيها ... حجارة ورسوما

وقولها فى موقف مفاضلة بين ألوان الشراب :

دنان مصر لا دنان الروم

ثم شعور الناس جميعا — حتى خصومها — بذلك البغض، وفى ذلك يقول حابى لزينون قبل أن ينزل عن رأيه فيها :

ولم يبق على الود لروما غير زينون

وإشباعا لهذه العواطف جميعا رسمت كليوباترا لنفسها ثلاث غايات :

(الأولى) أن تستخلص الشرق لنفسها مستقلا عن كل نفوذ .

(الثانية) أن تضعف قوى روما ما آستطاعت مع المحافظة على قواها هى .

(الثالثة) أن تعكس الآية السياسية الموجودة يومئذ، فتسود روما من خلال سيادة قيصر ضعيف تضمن أن يخضع لفتنة جمالها دائما، كما تضمن أن يخشى قوة بأسها ثانيا ، وكل هذه الشروط كانت تجتمع فى أنطونيوس . وتحمل كليوباترا غايتها الأولى والثالثة فى قولها لأنطونيوس :

أنت لروما فى غد وقيصرون بعد غد
والشرق سلطانى الذى إكليله لى انعقد

ثم تبسط غايتها الثالثة إذ تقول :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القـوم فى عداوة شطر

... ...

وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

والوسيلة التى ظنتها كليوباترا كفيلة بتحقيق هذه الغايات ، أن تقف من القيصرين المتحاربين موقف الحياد ، فقد كانت تؤمن بتكافؤ قواهما الحربية ، لأنهما «تقاسما الفلك والجيش» وبات كلاهما :

... ... شطـ ـرا من القوم فى عداوة شـطر

وقد أثبت تداول النصر بينهما قبل المعركة الفاصلة صدق هذا اليقين . وقدّرت كليوباترا أن حيادها هذا يكفل لهـا الاحتفاظ بقواها فى البر والبحر ، بينما ينهك القتال قوى القيصرين — المنتصر منهما والمخذول — حتى إذا قرت الحرب بينهما ظهرت بجيشها وأسـطولها ، لتجهز على أكتافيوس — إذا ظفر — وهو متعب منهوك ، ولتحييّ أنطونيوس — إذا كان هو الظافر — تحية القوى للضعيف ، لا تحية التابع للمتبوع . لكن الحياد الصريح كان معناه المحتوم أن تفقد أنطونيوس ، وأن تفقد كل أمل فى هواه ، وأن ينهار بفقدان هذا الأمل صرح أمانيها جميعا ، فاصطنعت كليوباترا

لنفسها حيادا مقنعا تتظاهر فيه بالقيام بنصيبها من أعباء الحرب الى جانب أنطونيوس ، حتى إذا نشبت المعركة فرت بجيشها أو أسطولها ، تاركة لفرار أنطونيوس القوى مهمة التماس الاعذار لضعفها وفرارها من حومة القتال ، ناطقا على لسانه :

فقلت انسحبت ضعفا وقال النــاس بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

ومهمة أخرى هي إلقاء تبعة الغدر والخيانة على من يشاء من قوادها :

فياقائد الأسطول هل من مكيدة تدبرلى خلف الشراع وماأدرى؟

وما من شك أنها مهمات يسيرة ، إزاء مهمة الاعتذار لخيانتها السافرة لو أنها وقفت منه موقف الحياد الصريح ! وما من شك كذلك أن هــذه المهمات قد أداها غرام أنطونيوس بنجاح فقد عفى عن ضعف حبيبته مرتين ومات راضيا عنها كل الرضاء .

ونستطيع استخلاص هــذه الخطة التى اتخذتها كليوباترا من أربعة مواضيع :

(الأوّل) فى موقف كليوباترا من حاشيتها بعد وقعة أكتيوم ، تبرر فرارها فى هذه الأبيات :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القوم فى عداوة شطر

بطـلاها تقاسما الفـلك والجيـ ـش وشـبا الوغى بحـر و بر
فتأملـت حالـتى مليـا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سلمت شراعى منـه فانسلت البوارج إثرى
خلصت من رحى القتال وممـا يلحـق السفن من دمار وأسر

(الثـانى) فى قول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألق السلاح ونجا

ولقد يلقى قول كليو باترا فى استقبال أنطونيوس على أثر عودته ظافرا فى اليوم الأول من يومى المعركة البرية :

هـو والله نشـيدى والمغنـون جنـودى
والمخـاريق الـتى تخـ ـفق من بعـد بنودى

لقد يلقى هذا القول ظلا من الشك على مسايرة خطة الانسحاب من المعركة لسياق الرواية ، يعززه أن أنطونيوس لم يأخذ عليها فرارها من هـذه المعركة كما أخذ عليها فرارها من أكتيوم ، لكن هذا الظل المريب يتضاءل ويفنى حينما نعلم أوّلا أن كليو باترا لم تشترك فى هذه المعركة بتاتا ، فقد « آلى وأقسم » أنطونيوس :

... ... لا يرى فى قصرهـا حـتى يقوم مجـده المنهار

وظل فى حنقه وغضبه منها «بأقرب ثكنة» من الأسكندرية يدعو من الرومان — وحدهم — من يختار :

ويعدّ أهبته ليوم حاسم فى البر يغسل عنه فيه العار

وحينما نتمشى ثانيا مع قول كليوباترا قليلا، فنسمعها فى فرحها بعودته تقول :

ولديها فارس ملـ ـتثم شاكى الحديد
هو أنطونيوس ذخرى وطريفى وتليدى

فهى لم تفرق بين جنود أنطونيوس وأعلامه، وبين جنودها هى وأعلامها، ولكن ذكرت نوعا واحدا من الجنود والأعلام والأناشيد، وقالت هم جنودى وأعلامى وأناشيدى، لأنها فى غرورها الفخور وفى ثقتها بجمالها وحب أنطونيوس لها وحبها لأنطونيوس، كانت تعتقد ما قالت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »، وترى على هذا أن كل ماله إنما هو ملك لها، وكان أنطونيوس بدوره يتناسى فى انتصاره عتبه الأوّل، ويتناسى فى غرامه أناشيد روما وأعلامها، ويتخذ أناشيد مصر وأعلامها، ويترك أسطوله « يعب تحت هذه الأعلام »، وجيشه يتغنى بهذه الأناشيد، وفاء لها بما أخذه لها على نفسه، أنه « مصرى » وأنه « تابعها الوفى » وأنه ما فى سوى رضاها له مضى .

(الثالث) قولها لأنو بيس :

وجيش الحليف وجيش العدو بظهـر المدينـة شـبا الوغى
أما جيشها هى فسياستها تعلم أين كان !

(الرابع) قولها لأنو بيس كذلك :

أبى أعلمت أن الجيش ولى وأن بوارجى أبت المضيا ؟

فكليو باترا هنا تشكو من أن بوارجها أبت المضى، لكن متى حدث هذا الإباء؟ هل كان ذلك فى معركة أكتيوم؟ طبعا لا... لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان هناك سبيل لشكاة كليو باترا من أمر هى صاحبة الرأى فيه، ولما كان هناك سبيل للتعبير عن فرار الأسطول يومئذ بأنه « إباء » أى تمرد، وهى الآمرة بالفرار وأسطولها لم يعد ان سمع وأطاع، ولما كانت هناك فائدة فى إخبار أنو بيس بنبأ قد عرفه منذ حين ... إذن لابد أن هذه البوارج قد أبت المضى الى الحرب بعد هزيمة أنطونيوس الأخيرة، وقد يبدو — وإن كان ذلك فى شىء من الغموض — أن كليو باترا تنفيذا لما بسطنا من خطتها أرادت أن تضرب أكتافيوس عقب انتصاره كما قدّرت، فأهابت بأسطولها أن يمضى فأبى هذا المضى، وأهابت بجيشها أن يمضى فولى الأدبار... اعتاد كلاهما لذة الدعة وراحة الفرار، ومن هذه العادة جنت كيلو باترا ماغرست فيهما من بذور

الضعف والخور، وتحطمت خطتها وسياستها على صخرة عاتية وقفت لديها تعض بنانها ندما وتقول :

أيها العين أبصرى إنما كنت فى حلم

مواطن الضعف فى هذه السياسة

(أولا) أخذ أنوبيس على هذه السياسة بصفة عامة أن كليوباترا كان يجب أن تخلص فى عون أنطونيوس، فيكون الأمل فى الظفر أقوى، وذلك حيث يقول :

تركتم أنطونيو س وحده يلقى العدا
من أجلكم سل الحسا م وإلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو التـ ـففتم على اللوا

لكن حسن الظن فى كليوباترا قد يستطيع الاعتذار لها بأنها كانت تريد الى جانبها قيصرا ضعيفا يمكن أن يرث عنه القيصرية ولدها قيصرون، لا قيصرا قويا قد تفقد سلطانها عليه إذا تعرض غرامه للذبول .

(ثانيا) قدرت كليوباترا أن يظل أنطونيوس فى المعركة بعد فرارها نخانها التقدير، وفر فى أثرها أنطونيوس :

لم تأت حتى جاء فى آثارها للحب أجنحة بهن يطار

(ثالثا) لم تقدّر ما يحدثه فرارها من الضعف المعنوى فى جيش أنطونيوس ، وآية هذا الضعف قول أوروس لمولاه :

وخلفت فى عسكر كالنعاج كثير الثغاء قليل الغنا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فرّ قبل اللقا

(رابعا) صراحتها الطائشة فى إعلان بغضها لروما أمام الرومان ، واضطرارها أنطونيوس أن يظهر بهذا المظهر كذلك أمام قوّاده ، مما أحنق أولئك القوّاد وجعلهم يقولون :

سنلبث ساعة نحتال حتى إذا سلت عقولهم انسللنا
فما المتدله السكير أهلا لتنصره السيوف إذا استللنا

ونرى أثر هذا الحنق حينما يقول أنطونيوس :

جنود أكتاف أدركونى يا ليتنى مت قبل هذا

فيجيبه جندى رومانى :

لا بل جنودك لكن خانوك حبا لروما

(خامسا) عدم اتعاظها بضعف سياستها بعد معركة أكتيوم ، وتكرار الانسحاب وتكرار الهزائم .

(سادسا) اعتمادها على جيش وأسطول علمتهما الهرب من ساحة القتال ، وقصارى ما نستطيع أن نقول فى سياسة كليوباترا

إن عينها كانت ترى ما وراء الأفق وتعمى عما تحت أنفها من عثرات ، وإن هذه السياسة ليست المسئول الوحيد عن هذه الكارثة التى انتهت بها حياة كليوباترا ولكن هناك مسئولا آخر هو الضعف النفسى الذى تحكم يومئذ فى أنطونيوس .

* * *

ولعل خير إطار تحلى به هذه الصورة الجامعة المتسقة الألوان لحياة هذه الملكة هو تأبين أنوبيس لها :

بنتى رجوتك للضحية والفدا ... فوجدت عندك فوق ما أنا راجى
إن تصبحى جسدا فنفسك حرة ... وعلاك سالمة وعرضك ناجى
سيقول بعدك كل جيل منصف ... ذهبت ولكن فى سبيل التاج

أنطـــونيـــوس

رسم المؤلف صورتين لأنطونيوس الجندى فى هذه الرواية :

(الأولى) صورته قبـل أن يتصـل بكليوباترا أيام أن كان يضحى بالهوى فى سبيل المجد .

(الثانية) صورة أنطونيوس بعد أن عرف كليوباترا وأصبح يضحى بالمجد فى سبيل الهوى .

ونرى الصورة الأولى حينما يذكر أنطونيوس — وهو مشرف على الموت — أيام صباه فيقول :

وأيام يدعونى الهـوى فأجيبه — وينفخ فى البوق المنادى فانبرى
فتنت الغـوانى برهـة وفتننى — ولكننى عن سـؤدد لم أقصر
فهمة قلبى فى شراب وصبوة — وهمـة نفسى فى علاء ومفخر
أروس تواقفنا على كل غمرة — وكل مجال ثائر النقع أكدر
وفى مهرجان الفاتحين وعرسهم — وتحت لواء أو على عـود منبر

فنراه من خلال هذه الصورة ، شجاعا ، ظافرا ، خطيبا يشبع عاطفته ولكن إلى الحدّ الذى لا يقف به فى سبيل المجد عن غاية .

ونرى الصورة الثانية حيث يفرّ أنطونيوس من معركة أكتيوم وفى ذلك يقول حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها — للحب أجنـحة بهنّ يطـار

وإذ يخرج به الهوى من معركة لو استمر فيها لكتب له النصر الأخير ، وذلك إذ يقول لكليوباترا عقب انتصاره المؤقت :

ومالت الشمس أوكادت فراجعنى — شوق إليك عديم الدار سـوار
حتى رجعت ولو أنى طردتهم — لبات أكتاف عندى وانقضى الثار

وإذ ينسى بلاده ووطنيته وجنسيته فى حب كايو باترا فتستطيع أن تقول :

... ... دعـــوا روما ولا تجـروا لهـا ذكرا
فمـا أنطونيـو منهـا وإن كان ابنهـا البكرا
ولكن تحت أعـلامى يقـود الـبر والبـحرا

فيسأله قائد من قواده :

أحـق مارك أنطونيو س من روميـة تـبرا؟

فيجنبه :

أجل أتبـع مـولاتى ولا أعصى لهـا أمرا

وإذ تستطيع أن تقول :

أنطونيو ما أنت رومانى ألم تقل إنك لى جندى

فيجيبها :

أجل وزدت أنى مصرى وأنى تابعـــك الـوفى
ما فى سوى رضاك لى مضى

وإذ يقول هو والخطاب لروما :

إن الذى بالأمس زنت جبينه بالغار عقك جهده وعصاك

وإذ يقول له قائد من قواده :

ألا إنـه ليــل له ماوراءه غرامك حى فيه والمجد ميت

وآخــر :

فــا المتدله السكير أهلا لتنصره السـيوف ... ...

وثالث :

حيـاته فى يـــديـه أم فى يـدى كليــو باترا

وإذ يناجى هو «إلهته» كليو باترا :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغـــير مـلاك

وإذ يفقد مزية الجندى الباسل فى ساحة الوغى، تلك المزية التى أثبتها لنفسه حين سألته كليو باترا :

... ... أسالم أنت لا أسر ولا عار؟

فأجاب :

أسر ؟ وهمت كليو باترا ... ...

اوقلت قتل لكان القول أشبه بى كأس المنايا على الأبطال دوار

وتلك هى مزية الثبات التى يفقدها أنطونيوس بفـراره من أكتيوم ثم فراره من المعركة البرية الثانية إذ يقول :

جللت نفسى بعــار يبقى بقاء الزمان

لمـا حملت جوادى على الفــرار ازدرانى

وضـــج منى سـيفى وضـــج منى سنانى

وودت الأرض تحتى لو طهرت من عيانى
أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى
كان الملوك عبيدى فصرت عبد الحسان

على أن المؤلف ترك له ما سوى هذا من مزايا الجندية ، فجعله على لسان كليوباترا :

جيشا بمفرده فى الروع جرار

وجعله على لسان حبرا « إله الحرب » .

وجعله على لسان أوروس « إله الوغى » حيث يقول :

رأيتك والحرب تبلو الكماة فأشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا
وكنت إذا الموت أفضى إليك تحدّيته فانثنى القهقرى

وجعله على لسان جندى رومانى :

... ... هيكلا عز فى الرجال ضريبا
... ... خير من هز رمحا أو نضا صارما ولاقى الحروبا

وجعله على لسان كليوباترا :

محور الأرض وميزان الشعوب

وجعله على لسان أكتافيوس « سيفا باترا لروما » :
ضمن أمثلة من هذا النوع تناثرت فى الرواية .

لكن هـذه المزايا الباقية لم تغن عنه شيئا إزاء ضعفه النفسى الذى أفاضه عليـه اندفاعه الأعمى فى هواه ، وجعـله من حيث طاعته لكليو باترا « كهمج الاسكندرية » .

ثم صـوّر المؤلف صورة أخرى لأنطونيوس من حيث هو رجل فنراه من خلال هذه الصورة : غفورا يتجلى غفرانه لكليو باترا مرة بعد أخرى ، ويبدو ذلك فى قولها له :

وكم حقدت ثم أصبحـ ـت كأنـ لم تحقد

رحيم القلب ، بشوش الوجه :
وتبدو رحمته وبشاشته فى قول كليو باترا :

ليس العبوس سـنة لوجهك الطلق الندى
ولست من يغضب فى ليـل الشراب والدد
ولست للكأس على شاربهـا بالمفسـد
قلبك كنز الحب والـ ـر حمـة والتـودّد

أكتافيوس

يظهر أكتافيوس فى الرواية قائدا عظيما قويا ويبدو ذلك فى انتصاره وفى قوله «وما أنا إلا سيف رومة» وفى قول كليوباترا :

إن اسطعت على ما لك من بطش ومن فتك
وما حولك من خيل وما تحتك من فلك

وسياسيا :

ويبدو ذلك فى المعاهدة التى أراد أن يخدع بها كليوباترا ليتخذها شارة فى موكب انتصاره .

أنوبيس

يتمثل فى الرواية مصريا شديد الغيرة على مصريته .

ويتجلى ذلك إذ يقول :

إيزيس كيف أصلى على ابن يوليوس قيصر
أبوه عال ولكن فرعون أعلى وأكبر

وإذ يوحى إلى كليوباترا فكرة الانتحار عطفا عليها من حيث هى ملكة مصرية وحرصا على كرامة التاج المصرى ، ويتضح ذلك فى حواره حول أفاعيه وإذ يختم هذا الحوار قائلا :

يمينـا بإيزيس أحملهن إليك ولو فى سـلال الخضر
إذا بات فى خطر تاج مصر سبقت إليـك بهنّ الخطـر

وهو من هذه الناحية موزع بين عاطفتين :

(الأولى) عطفه على كليوباترا .

(الثانية) بغضه لروما .

ويتجلى هذا البغض فى قوله :

حابى أحيط القصر بالذئاب وبى من السخط عليهـم مابى

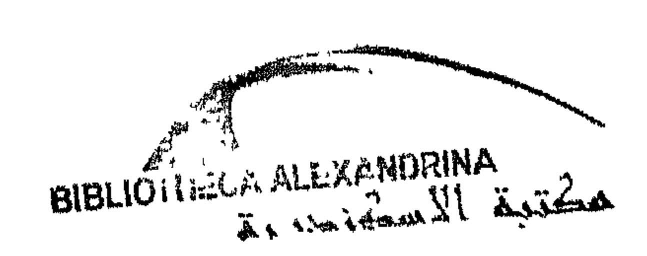
لكنه لم يكن ينسى فى هذا البغض أن آمال مصر معقودة على انتصار أنطونيوس . وقد رأينا أثر ذلك فى سياسة كليوباترا .

⁂

كَمُلَ طبع رواية "مصرع كليوباترا" بمطبعة دار الكتب المصرية
في يوم الخميس غرة جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ (٢ مايو سنة ١٩٤٦) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦٥/١٩٤٥/٧٠٠٠)



[تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر]

